



mersalli



فارس قسطله
الجزء الأول

فارس قسطله

للكاتب الكبير

صمويل شيللا بارجر

تربى الأستاذ

نحمود مسعود

الجزء الأول

عن كتب برقب ويتفرج ، وقد توسط هذا الحشد كله (ديجو دي سيلفا) نفسه معنينا
صهوة جواده الأصيل وهو منهك في لبس قفاز الركوب .

كان دي سيلفا شابا حليق الوجه تتجلى في عينيه الواسعتين السوداوين امارات
الاستنار والعماء والقحة ، كان معروفا بأنه أغنى رجل في بلدة (جاين) ، ومن ثم كان
وهو غير المتزوج يحظ أنظار النساء في البلدة جميعاً .

والواقع أن دون فرنسكو ما كاد يرى هذا الحشد حتى بدت عليه علامات الاهتمام ،
ويعم شطر دي سيلفا قائلاً :

— ماذا جرى ؟ . . ليس هذا فصل الصيد والقنص يا سيور دي سيلفا . . فإذا
تصطادون ؟ .

فأجاب دي سيلفا باستخفافه للعبود :

— هذا صيد بشري . . هو خادى كوتل . . إنني جلدته هذا الشقي أمس تطهيراً
لروحه النجسة ، فكان جزائي منه الحرب . لن يهرب مني أبداً متى وضعت يدي عليه !
كان الهندى الأحمر كوتل إحدى العجائب في هذه البلدة ، رغم كثرتهم في اللوانى
الاسبانية ينجى بهم اليها المستكشفون من جزائر المحيط . . وقد اشتراه دي سيلفا من
أحد مراعى جزيرة كوبا وألحقه بخدمته فكان عنده بمثابة العبد الرقيق رغم قانون
حظر استرقاق الهنود . . وكان يدرو يعرف هذا الهندى الشاب المقنول العضل وقد
استأمره من سيده مرات في سيد القناب تجربته بالطرق ومهارته في قس الآثار ، وقد
تملكه الآن أسف لما أقدم عليه هذا الهندى من التمرد والحرب .

ومهما يكن فإن دي سيلفا دعا رب الأسرة لمشاركته في هذا الصيد البشرى ،
فاعتذر دون فرنسكو بتقدمه في السن ، ولما وجهت الدعوة إلى يدرو قال إنه سيعيد
جواده ويلحق بهم في عشر دقائق ، فقال دي سيلفا وهو يجذب عنان جواده :

— بديع ! . ستبقي في طريقنا وادي جوارديا ، ونطلق الكلاب على جانبي القناة ،
فقد شوهد كوتل ينطلق في هذا الاتجاه . . فالحق بنا متى استطعت .

ونفخ في البوق ، فصال جواد دي سيلفا وجال ، وهاجت الكلاب ، وأفسح
للمتفرجون الطريق ، واندفع اللوكب في حملته حتى تباعدت أصواته عن المكان .

القسم الأول

الفصل الأول

خرج (يدرو دي فارغاس) من الكنيسة صباح هذا اليوم مع أسرته بعد الصلاة
راضياً بقرار المين . . وماله لا يرضى ويقر عيناً وقد التقي في الكنيسة بعجوبته القاتنة
(لوزا دي كارخال) فعمس لها أصابعه في الساء للقدس فلمست يده ورسمت علامة
الصليب شاكرة باسمه تلك الابتسامة التي خلبت له وتركته بعد ابتعادها عنه مع مربيتها
في شبه ذهول ! . نعم إنه صادف أيضاً في الكنيسة (كانانا بيريز) الرافضة الشيطانة
البوهيمية التي عرفها في ساحة (روزاريو) الجبلية ، فلم يستطع أن يرضن عليها بفمسة
من الماء للقدس كما استوجب تساول أسويه عنها وتعرضه للحرج أمامهما ، بيد أنه لم
يسكت بهذا في حمرة السعادة التي هبطت عليه حين اكتشف اليوم هذا الحب الوليد
الذي شعر به يدب بين جوانحه حال معبودته لوزا .

كانت هذه هي الاحتمالات التي تمتثل في وجدان يدرو في مستهل عامه العشرين
حين خرج صباح هذا اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو عام ١٩١٨ . من كنيسة
لذته (جاين) الاسبانية مع والده (دون فرنسكو) المحارب القديم والهندى الباسل
الذي شاع صغر كثر من الحروب الأوربية في ذلك العهد ، ومع والدته (دوناماريا)
ذات الأسسل الايطالى التي نبتت في الأرجين ، ومع شقيقته (مرسيدس) الرقيقة
الغضة التي لم تجاوز عامها الثاني عشر ، والتي كان اعتلال صحتها مثار قلق الأسرة جميعاً .
وسارت الأسرة في موكب صغير يخرق طرقات البلدة القائمة في سفح الجبال وقد
رجل يدرو دونهم وراح يسير معهم في شبه حلم من فرط ما كان فيه من القعدة والسعادة
عجبه الجديد ، لما أفاق من تأملاته القرامية إلا وقد بلغوا دار (ديجو دي سيلفا)
حيث كانت حركة عادية تمتل في كوكبة من الفرسان بينهم كثير من أسدقاء يدرو ،
في مجموعة من كلاب الصيد يحسب بها الخدم ، وفي أفراد من المارة الذين وقف

واستأق دون فرنسكو دى فرجاس سيرة وأسرته إلى المنزل . وراح يعقب في الطريق على أخلاق دى سيلفا وتصرفاته مندداً ، وقال في النهاية :

— وبطمع هذا الخلق في شراء مزارع كرومي . إنه يتعلق بأمال في الهواء . فما كان بدرو يسمع هذا التصريح حتى انزعج إذ كان يعرف تعلق والده بهذه المزارع ، وسأله للزبد من اليان ، فقال الأب :

— نعم .. إنه يريد استكمال أملاكه بشراء هذه المزارع المجاورة لأرضه ، وهو يمرض ثمناً طيباً ، لكن دون شرائها ازهاق روحه .

وتطرق الوالد من هذا إلى ابداء عجب من ازماع بدرو الركوب في زمرة دى سيلفا فقال الفتى :

— لن أركب معهم يا أبنائه .. إنهم اتبعوا طريق جوارديا ، وأنا أعتقد أن كوتل لن يذهب في هذا الطريق ، بل سيقصد إلى البحر من ناحية ميناء قادس لكي يعود إلى جزائر الهند .. إلى أعرف طباعه ، فهو ثعلب ماكر ، وسيكون لي خسر أعادته وحدي ..

وقد ظفر بدرو بمواقفة أبيه على هذا الرأي ، لا مساعدة لى سيلفا في استرجاع خادمه الآبق ، ولكن لكي يفوز ولده في هذه المطاردة ويعقق وحده ما يعجز عنه دى سيلفا وفرسانه وكلابه .

الفصل الثاني

رسم بدرو خطته بعناية تامة بعد استعراض كافة الوسائل التي قد يسلكها الهندي كوتل والمخابى التي قد يأوى إليها بين الجبال في هروبه إلى ميناء (قادس) ، فصح عنده من اختباراته اللازمة مع كوتل أن الخبا للثألى لهذا الغرض هو كهف معين في أعالي الجبال مفتوح من الجانبين وبه عين ماء جارئة .. وكذلك امتطى بدرو جواده (كبيدور) وارتقى إلى الجبال في رحلة شاقة في وقدة الشمس المحرقة ، ثم ترجل عن الجواد وربطه بين الصخور وسار إلى الكهف محاذراً ..

على أنه لم يوفق في مهمته رغم فرط التدقيق والحذر ، فقد ألنى الكهف خاوياً .. وبينما هو يحرق عبر الكهف إلى الناحية للقابلة إذ شعر بجأة بذراعين فولاذيتين

تطبقان عليه من الخلف ، وإذا هو يرفع من مكانه ويلقى به أرضاً ، ولم يكدهم بالتمسك حتى شعر بوخز مدية في جنبه ، وصع صوتاً كالفضجيج يقول صاحبه :

— أيها الكلب الأسباني ..! سأنتلك ..!

واستطاع بدرو أن يدير رأسه ، فلم يكن مهاجمة سوى كوتل ..

وفي نفس الوقت بدت الدهشة على وجه الهندي ، وتغلى عن بدرو مسرعاً ، وراح يعتبر إليه بقوله إنه هاجمه دون أن يعرفه وإنه حبه واحداً من مطارديه ، أما وهو السيد بدرو الصديق الحميم فهذا شيء آخر ، وهو لذلك يلتمس منه الصفح والفرقة .. ترى هل أكرم من هذا الثل الرائع الذي ضربه ذلك العبد الرقيق .. ؟ لقد جاء بدرو لاعتقاله وتمسك سيده منه ، فإذا الهندي وقد تمكن من بدرو يعف عن القتل به .. فكيف يقدم بدرو بعد ذلك على تنفيذ عزمه ؟ ولو فعل لكان أحط نفساً من هذا الذي يعده مواطنوه من العيد الأرقاء ..

وسأله بدرو :

— لماذا هربت ؟

فكان جواب كوتل أن كنف عن ظهره ، فإذا هو ممزق يختلط فيه اللحم بالدم من جلد الشياط ، وقال بصوت عثقي :

— إني لست من العيد .. إني سيد في قوى ..! عندنا أقوام ومدن .. إني دى سيلفا متسول بالنسبة إلى في قوى .. إنه يخلدني حتى الموت .. ولو تمكنت منه لقتلته .. فهل من عجب إذا هربت ؟

— وهل تظن أنك تستطيع العودة إلى جزائر الهند ؟

— إني أرجو العون من ألهي .. فهل تساعدني يا سيد بدرو ؟

— وكيف ..؟

— بتقود منك ، أصل بها إلى ميناء (سانلوكار) ، حيث أركب البحر إلى موطنى دس بدرو يده في جيبه برغمه يعث بالجنتين النهيين الذين ها كل ثروته ، ولبت برهة متردداً .. هل يتخلى عن الواجب الذي جاء لأجله ؟ واجب إعادة هذا العبد الآبق للعد إلى سلطان دى سيلفا وإلى حظيرة الكنيسة والتوحيد .. ؟ إنه إن فعل لأسلم

إلى السوط ، ولئن نجا من الهلاك على يدي سيده فلن ينجو من هول العذاب في (ديوان الفتيش) باعتباره وثيا مرتدا ..!

كانت هذه الصورة البشعة كافية لكي يقرر بندرو قراره... ولقد أخرج يده
بالجنين وقدمهما إلى كوتل قائلا :

— ليتني كنت أملك أكثر من هذا .. عليك الآن بالاسراع والابتعاد عن هذا
الاقليم ، وإلا قطعوا عليك الطريق .. سعد حثك .. أرجو لك سلامة الوصول إلى
سانتو كلر ..

وقف الهندي برهة صامتا ، ثم أمسك يده يدرو وقال له بصوت أجش وهو ينظر في عينه :

— ان کو تل لا پنی ایدا ..

واثنى الهندي على الأثر وغاب عن عيني بدرو من فتحة الكهف للقابة .

الفصل الثالث

شعر يتدرو بالجوع ، فهو لم يتناول طعاماً منذ العشاء ولم يقطر هذا الصباح ، وأثر
أن يهرج على حانة (روزاريو) طلباً للطعام والشراب ، وحتى لا تكون عودته السريعة
مثلاً للظنون والتأويلات ..

وبينما هو في الطريق إذ أجفل جواده فجاء برأى ثوب فتاة ملق على الحشاش
الكثيفة ، ومشهد كلب سيد طريح بذعة في عنقه ..

دهش بدرو وحق له أن يدهش .. وفيما هو يغتش حوايه إذ شق حجاب السكون
صرخ امرأة تطلب النجدة صادرا من حشر قريب .. فلم يتردد بدرو ولم ينتظر ، بل
همز حواده وشق طريقه إلى داخل الحشر وإلى الفراغ الصغير الذي يتوسطه ..

ورأى منظرًا عجيباً .. رأى فتاة مجردة إلا من ملابسها الداخلية تواجر رجلين بديتين
عليهما شعار دى سيلفا يحاولان الاعتصام عليها ، لولا تلك اللحية التي شهرتها القنافة
بدها وقد جرحتهما أحد الرجلين في كتفه .

ولم تكن الفتاة سوى (كاتانا بيريز) راقصة حانة (روزاريو) ...

وسرعان ما انقض يدرو على الرجلين بسوطه وجواده ، فأثخنهما ضربا وجرحا حتى

لأذا بالفرار ، ثم جاء لقتاة عجلبها ووقف ينتظر برهة خارج الحرش حتى لبست وأصلحت من نفسها ، وعادت اليه تضم بيدها ثوبها الممزق وقد لاحت على وجنتها بقعة مائة من أثر العدوان عليها ...

لم تكن كائناتنا بالقناة الحسنة ، وقد تجردت من الحسن وهي الآن شعاع غبراء ..
 لكن .. حسنها في شخصيتها العريضة وقوة عزمها وشدة بأسها ..

سألتها ماذا حدث . . . فقالت إنها بينما كانت عائدة من الكنيسة كلفها (سانكو لوييز) صاحب الحانة بالبحث عن عترة ضالة له ، فبينما هي تبحث هذا للرعى إذ اعترض

طريقها رجلا قال لهما من أتباع السيور دى سيلفا وإلهما ييخان عن خادم هارب
وقد حلا لأحدهما أن يغازلها ، فصفته ، فأغريا بها كليين كانا معهما ، ومع أن الكليين
نزعاً جلبابها فقد طعنت أحدهما فى عنقه طعنة نخلاء وأرسلت الآخر يهوى هاربا . فلما

كان من الرجلين إلا أن انقضا عليها وجرداها من اللدية وجلباها إلى داخل الحرس وكما فاها بتعديل .. فظاهرت بالانغماء وأخذت تتحين الفرصة .. ثم غافلتهما وجذبت خنجر أحدهما فجرحته به ، وأردفت أخيراً قائلة :

— ولولا أنك جئت لجدتي لكان مسيرى على أيديهما مروعا رهيبا ، كما فهمت
من تهديدها .. سأكلم مانويل عنها ..

— من هو مانويل ؟ —

— هو أخى .. ألا تذكر ؟ .. إنه يشتغل فى السجن .. ولنا أصدقاء يعرفون
كف ثأرون لنا ..

وَبِأَنَّهُ تَذَكَّرْتُ كَأَنَّا أَنْ الرَّجُلَيْنِ مِنْ أَتْبَاعِ دِي سِلْفَا وَأَنَّ الْكَلْبَيْنِ مِنْ كَلَابِهِ
وَأَعْرَبْتُ عَنْ خَوْفِهَا مِنْ بَطْشِ هَذَا السَّيِّدِ الْجَبَّارِ الْقَوِيِّ الْفَوَّازِ، فَطَيْبَ يَدْرُو خَاطِرَهُ
وَقَرَّرَ أَنَّهَا كَانَتْ فَرَسَةً الْعَدَوَانِ، وَأَرْدَفَ قَائِلًا:

— إذا ضايقت في شيء فاعلى إلى ، وسأعرف كيف أعطيه الترضية التي يريد .
فشكرته الفتاة باسمه . وخفاة لم يستطع مقاومة إغراء نهرها الناضج ، فطوق

باعدده ، وطبع على شفتيها قبله لم تسمح له أن يكررها ، فتركها وهو يوجب

أَطْلُوا رَهَا ..

ولما أعربت الفتاة عن رغبتها في العودة أردفها خلفه فوق الجواد وسار بها شطر الخانة .. ولم يتالك وهو في الطريق أن تذكر لوزا دي كارخال وذهب يقارن بينها في عليائها وبين هذه الفتاة الجبيلة رفيقة الأشقياء والشذاذ التي لم تنزع عن تفيلها ، فحبب من جرأته ومما تورط فيه في هذا النهار الحافل ..

وأما الفتاة فقد استقرت خلفه ممسكة بحزامه وقد تجلست في نظراتها مسعدة بالغة ودت لو تدوم إلى أبد الدهر ، فما فطنت آخر الأمر إلا وقد بلغا الخانة ، فأنحدرت من مكانها آسفة شاكرة ..

الفصل الرابع

لم تكن الخانة مكتظة حين وصولها ، وقد تلقاها صاحبها سائلكو لويز مرحباً بالسيد بدرو ، سائلاً كأننا هل وجدت العزة الضالة .. فراحت الفتاة تقص ما حدث لها ، وسرعان ما تصاعدت صيحات الاستنكار والوعيد من أرجاء الخانة . إذ كانت كأننا محبوبة الجميع ، وإن كان اسم دي سيلفا صاحب الحول والطول قد نال من تحمسهم واندفاعهم .

وكانت عين كأننا للشفقة من أثر العدوان عليها مثل وصفات كثيرة ، لكن أغربها هذه الوصفة التي تطوع بها رجل ضخم الجثة عريض النكبين غليظ العنق في منتصف العقد الرابع من عمره . جلس إلى مائدة في أحد أركان الخانة ، إذ قال للراقصة بصوته العميق للدوى :

— لا علاج للعين للشفقة أفضل من اللحم التي توضع شريعة منه على العين فوراً فلا يكون الصباح حتى يتم الشفاء بأذن الله !

وقد آمن صاحب الخانة على هذه الوصفة ، ثم التفت إلى بدرو يسأله عن حاجته ، فطلب خبراً وجيئاً ونيذراً ، وإذ ذاك دعاه الرجل البدن الغليظ قائلاً :

— هلا شرفتي ياسيد بالجلوس إلى مائدتي ؟ .. إن جوان جارسيا تحت أمرك .. ألسنت ابن دون فرانسكو دي فرجاس ؟ ..

ولما جلس بدرو عجيباً بالإنجاب ، راح الرجل يطرئ أباه ويثنى عليه لما استفاض من شهرته ، وقد شرب نخبه ، ولكن ماء قراحاً لا خمراً ، وأردف قائلاً :

— إنى عرفت في جزائر الهند انغرية جنوداً ساهموا في الحروب الاسبانية والحروب الإيطالية ، وكثير منهم كان يثنى على والدهك ..

فقال بدرو في دهشة وقد سمع يشير إلى (الدنيا الجديدة) التي كان اسمها يتواتر على الألسنة ويلهب الخيال في أدمغة الشباب :

— هل كنت في جزائر الهند الغربية ياسيدي ؟ ..

— بل لبثت فيها ستة عشر عاماً ، وقد عدت منها منذ أسبوعين فقط .. إنى كنت

في مثل سنك حين أبهرت من ميناء (قانس) في رقعة للكشف العظيم كريستوفر كولومبس ..

كان في هذا الكلام مأزوم لحفة (بدرو) وزاده شوقاً على شوق ، فأخذ ينهال على جوان جارسيا بالأسئلة عن هذه الاكتشافات الجديدة وهو لا يرضى عليه بما يريد ، حتى قال له في النهاية :

— إن بين أمواج المحيط أراضى بكرأ فيها الذهب أرخص من الحديد ، وفيها يعيش الهنود الجر الوثنيون في القصور وبأكلون طعامهم في صحاف من ذهب .. وذلك كله في انتظار من يغزو ويكتشف ! .. أجل ! هناك هناك ، وامبراطوريات ، وجبال من ذهب ! وهي جميعاً تنتظر أول باسل مقدم يتطوع للغامرة ! ومع ذلك أرى القتيان أمثالك يجلسون في أسبانيا ساكنين وادعين ! .. إنها والله دنيا غريبة وعالم فريد ! .. هناك العبيد ، والنساء ، والآلئ ، والمجوهرات !

— إن أبى يقول إن إيطاليا هي المدرسة الوحيدة التي تلقن فيها دروس المحذ والتصرف .. وهو ينوى أن يوفدني إليها في العام القادم ، هذا إلى أن أبى إيطالية .. نعم ، ليس في تيتي أن أبقى في أسبانيا .. وفي رأيي والله أن الانسان ينال أحسن الصيت بمقاتلة الفرنسيين والسويسريين الذين اشتهروا بإجادة الحرب والطعان فقال جارسيا بحماس :

— مع احترامي لوألك ، فعندي أن الانسان ينال شرفاً أكبر باتخاذ الوثنيين من ظلمات الجهل والظلال ، وباستخلاص أقاليم جديدة تخفق فوقها راية الملك وإذ غادت كأننا للعمل معصية العين طلب جارسيا كاشاً أخرى من التبيذ لضيفه بدرو

فلما ألقاه القى محتماً عن الشراب سأل في هذا ، فقال جارسيا بعد تردد :

— أنا رجل كسك الناس في غير حالة السكر ، فإذا سكرت استحلقت إلى شخص مخنون ، وتعلكتني شهوة القتل وسفك السماء .. هذا هو تفسير امتناعي عن الشرب شعر بدرو بالطف على صاحبه الضخم وأعرب له عن هذا الشعور ، فقال هذا وقد آس فيه الطيبة وصدق الطوية :

— أعتقد أنني أستطيع الثقة بك والاطمئنان إليك ، فهل تقسم أنك لا تبوح بما سوف أخبرك به ؟

فلما أقسم بدرو أنشأ جارسيا يقول :

— الحقيقة أنني من مواليد بلدتنا جابن هذه .. ومنذ ستة عشر عاماً قتلت رجلاً وأنا في حالة سكر .. ولى هنا أم مازلت على قيد الحياة ، وأنا الآن عائد لرؤيتها ... وإذا قبضوا على ...

وترك لصاحبه أن يفهم المعنى ثم أردف :

— إنني أحتاج إلى صديق .. فهل أنت ذاهب إلى البلدة ؟

— نعم .. حالا ..

— إذن سأركب بصحبتك إذا سمحت .. وبالإمكان أن نسلك في الطريق بحرية أكثر ...

وغادرا الخانة بعد أن نفخ جارسيا صاحبها وخدمها ما ألهم ألسنتهم بالسكر ، بل إنه أعطى كافانا ذهبيا كاملاً تشتري به ثوبا أو أثوابا لها حتى ترك الفتاة من سخائه في شبه ذهول ...

واستأنف جارسيا حديثه في الطريق إلى البلدة وهما على ظهر الدابتين ، فراح يقول :

— إن أي تدعى (دوروتيا روميرو) القابلة ، وكانت من أجمل النساء في شبابها وكانت خير الأمهات على الإطلاق ، ولقد عاشت حياتها الماضية تعاني الشغل والفاقة ، واشتد بها الحال بعد فعلتي التي فعلتها .. لكنها منذ اليوم ستتقلب على الحرر وبين الورود ، وسأذهب بها إلى بلدة أخرى حيث أبتاع لها داراً خاصة وأجعل لها خادماً وبعلاً وستأكل اللحم كل يوم .. إنني والله يا صديقي أسهر الليل بطوله كما فكرت في هذا ..

وقال جارسيا إنه أثرى في السنين الأخيرة ، وإنه كان يمتلك أرضاً في جزيرة (سانتا ديمينجو) باعها لقاء ألفين من الجنيهات الذهبية « وهو مبلغ استعظمه بدرو حقاً » وأن بعض هذا المال معه الآن في سرج بقلته ، أما الباقي فقد أودعه بيت المال في ميناء قانس باسمه واسم أمه ، واستطرد جارسيا قائلاً :

— فإذا قبضوا على في جابن قبل أن أرى أي كان لها أن تحصل على المال المودع في قانس .. فهل لك أن تعني بأمرها من هذه الناحية ؟ هذا ما أردت أن أسألك .. وبغير ذلك سوف يسلبونها المال وهي امرأة ضعيفة جاهلة

وكان جارسيا يتكلم بلهجة مؤثرة ، فوعده بدرو بما يريد ، وتضافاً تؤكداً لهذا العهد ...

وفي الحق أنه قد نبئت بين هذين الاثنين صداقة روحية لا تغفل بفارق السن رغم أن أحدهما في العشرين والثاني في الخامسة والثلاثين ، ورغم الفوارق الاجتماعية والمادية بينهما .. ولاغرو ، فإن الروح من أمر الله ..

وقال جارسيا :

— الآن أستطيع أن أعلق في حبل المشقة مستريح البال ، إذا تطور الأمر إلى هذا الحد .. على أنني سأريك شيئاً

وأخرج جواب البحار والآفاق من جيوب سرجه ملية حمراء وضعها على وجهه فأخفت معالمه الأولى واستحال بمساحيق معه إلى هيئة تاجر متقدم في السن مقوس الشكين . وبدت لها أسوار البلدة غير بعيدة ، ومرا من بوابتها في سهولة دون أن يتترضها معترض وعند مفترق الطريق وقفاً يتبادلان التحية والوداع ، فقال بدرو إن بيت آل فارجاس معروف لكل إنسان ، وقال جارسيا إنه سينزل في فندق (كورونا) وإن بدرو لن يسمع بأنيائه إذا سارت الأمور على ما يرام إلا بعد مغادرته (جابن) وأردف قائلاً :

— وفي أثناء ذلك فكر في الغرب وفي الدنيا الجديدة أيها الصديق ... وإذا قررت أن تجوب البحار فأصل في ، فيوسعي أن أمدك بعشورتي ، بل يوسعي أيضاً أن أرافقك .. إلى اللقاء ..

وصار (بدرو) في طريقه وهو يعجب من جرأته وبما فعله في يومه هذا من أمور

لا يقرها العرف والدين ، فهو قد ساعد عبداً وثنيا على الهرب من ربة سيده ، وصان عرض فتاة من راقصات الخانات ، وواسى بطفه ومودته قاتلا ... فهل ينتظر له ما تورط فيه من هذه الأفاعيل ؟ ..

وقطع عليه تصوراتيه وهو يحاور بيته مقدم خادم يناوله رسالة قال إنها له .. فإذا هي صغيرة الحجم أنيقة .. وراح بندرو ينظر إليها في ذهول .. فقد وقع السحبل ... وأيقن قبل أن يفرض الرسالة أنها من (لوزا دي كارغفال) ..

الفصل الخامس

إن كان في الدنيا من هو دائم الحنين إلى ماضيه الحافل بالمجاد الحروب ومجالي القروسية فنلك هو دون فرانسكو دي فارغاس ... وإنما كان يعزبه عن ذلك للاضي العاطر في شيفوخته الحاضرة إنه يعيش الآن وادعا هاتنا بين زوجته الوفية المحبة (دونا ماريا) . وولده النجب بندرو الذي يريد أن يكون خير خلف لخير سلف . وابنته القصة (مرسيدس) التي هي أقرب إلى زهرة تتفتح عنها الآكام ، وفي ظلال كرومه وأغصانه الممتدة في مزارعه على السفوح خارج البلدة ...

وكان من عادة دون فرانسكو أن يقضى أغلب أمسيات الصيف في شرفة كشك خاص في مزارعه . حيث يتناول مع أسرته طعام العشاء ويسمعون بالأحداث ... ففي مساء هذا اليوم اجتمعت الأسرة حول مائدة العشاء في رحاب الشرفة الفسيحة ، وبعد أن فرغوا من طعامهم وشربهم شرع الأب يتحدث عن مستقبل بندرو وعن الرحلة التي يوشك أن يعمده لها خارج الديار الأسبانية في خدمة عاهل فرنسا ، و (بندرو) في شغل شاغل عن هذا بالتفكير في تلك الرسالة التي تلقاها من (لوزا دي كارغفال) تستدرجه فيها إلى لقائهما مساء الغد عند باب قصرها ، وإن خلت الرسالة مع ذلك من اسمها ومن كل دلالة إلى شخصها ...

ومهما يكن فإن بندرو لم يسهه إلا أن يلقى بسمعه إلى أبيه ويتلقى رسالة (لوزا) مؤقتا ، فقال إنه بينما كان عائداً هذا اليوم التقى برجل قضى أعواما في جزائر الهند ، وأن هذا الرجل قد جمع ثروة طائلة في العالم الجديد ، وأن بندرو يؤثر لو اختار والده هذه البقاع مسرحا لتعليمه وتثقيفه بدل إيطاليا اللساجة في حروب ملك فرنسا ...

فأكد والده يسمع منه ذلك حتى ثار ثورة عنيفة وقال إن الدين ينامرون في تلك الرحلات إلى الدنيا الجديدة للزعومة إنما هم الأشقياء والأفاقون وطريدو القانون وخربجو السجون ، وأردف ذلك بقوله في لهجة قاطلة :

— لنفهم هذا فهما واضحا لا ليس فيه من تذهب إلى جزائر الهند ... فأتزع هذا القغو من رأسك ... وستسلك سبيل الجندي النظامية حيث تضمن المستقبل الزاهر والرق المظرد ... !

ولم يكن أمام بندرو إلا أن ينزل على رأي أبيه ، وهكذا سكنت ثورة الأب وذهب احتدامه ، وقال إنه تلقى اليوم رسالة من الحارب الفرنسي الكبير (دي بايار) في هذا المقام ... وفي الحق أن ذكر هذا الاسم كان له تأثير بالغ على أفراد الأسرة لما استفاض من شهرة هذا الجندي الكبير في ميادين الحروب في فرنسا وإيطاليا ، وقال الأب إنه منذ أربعة أشهر قد كتب إلى هذا القائد الكبير الذي هو الآن محافظ مدينة (جرينوبل) الفرنسية يقترح عليه قبول ولده تحت رعايته لتلقيه فنون الحروب والقروسية تمهيدا لمشاركته العملية فيها حين يجد الجد وتخدم اللواقع ، فتلقي منه اليوم رداً يقبل ادماج بندرو في فرقة فرسانه ، واختتم الأب حديثه قائلا :

— والآن ما رأيك في هذا يا (بندرو) ؟ .. أين من هذا الدنيا الجديدة للزعومة ؟ ..

والواقع أن بندرو أبدى اغتباطه وشاركته الأسرة شعوره ، وبينما كان الأب يهم بقراءة نص الرسالة التي تلقاها من (بايار) ، إذ نهجت السكالب ، وسمعت أقدام وافد على الدار ، وإذا هو (ديجو دي سيلفا) ...

بدا أنيقا مسرفا في أناقته كعادته ، تستريح العين إلى منظره ، لو لا ذلك الغموض الحق الذي توسمه (بندرو) فيه ولم يكن يطمئن إليه ..

وقد رحبت به الأسرة طبعاً ، وقال إنه كان يتفقد كرومه المجاورة لهم ، فبدا له أن يمرج عليهم زائراً ، وخصوصاً أنه متعب من أثر مطاردته لحاديه الهندى الحارب ... فقال له رب الأسرة :

— إذن لم تستطع الوصول إليه ؟

فقال دى سيلفا بغير اكترات :

— لا .. لكن سئالة يدى .. فان مثل هذا الخلق للتوحش لا يستطيع الابتعاد بين الجبال .. وقد أخطرت الجهات المختصة فى ميناءى غرناطة وقادس .

ثم نظر إلى بدرى وأردف :

— إنك لم تشرك معنا فى اللطافة ؟

فصرح بدرى خطئه فى البحث والعرق يسيل تحت ثيابه ، فقد أدرك الغرض من مجئ دى سيلفا واستجمع جأشه لتلقى شكواه مما أصاب خادميه ، ولكن من عجب أنه لم يطرق هذا الموضوع وأخذ يتحدث فى شئون أخرى .. فصرح على موضوع الكروم التى يمتلكها دى فارجاس وقال إنها تكمل أراضيه المجاورة وإنه يرفع الثمن الذى عرضته من قبل إلى سبعمائة جنيه ذهب بدلا من خمسمائة ، واستطرد قائلا :

— إن بعضهم أحرز بأن فى نيتك إيفاد ابنك إلى الخارج ، وهو ما يكافئك مالا طائلا ، ولذلك خطر لى أن أبيع مزارعك فيه فائدة لك فى هذا المقام ..

أما دى فارجاس فقد ضاق بهذا الزائر المالح الذى يغوص فى هذه الشئون المالية على مسمع من أفراد الأسرة وكان الأجدر أن تكون محصورة بينهما ، ولذلك اعتذر عن البيع ، وقال عن ابنه إنهم كانوا يعالجون الآن هذا الموضوع وأن القائد الفرنسى الكبير دى بايار كتب إليه يقول إنه يرحب بابنه فى فرقته .. وشفع الأب هذا الكلام بتقديم رسالة دى بايار .. فتناولها دى سيلفا بغثور وألقى عليها نظرة عارضة ، وقال إن هذا الأسلوب فى تنشئة الأبناء قد غدا عتيقا وإن من الخير أن يرسل ابنه إلى مكان آخر مثل جزائر الهند الغربية ، حيث يجمع هو الذهب قريبا فى رفقة حملة يتولى صديقه ديبجو فيلاسكيز حاكم جزيرة كوبا الذى وعد أن يسهل له فى هذه الرحلة أراضى وكروا ورقيا من الهنود ، ثم استطرد دى سيلفا قائلا :

— فضلا عن هذا فالى من أسار المجمع المقدس وسأقوم فى جزائر الهند بجولة استطلاع لنشر تعاليمه ، وسيرفقنى لهذا الغرض الأب ايناسيو دى لورا رئيس محكمة التفتيش فى جاين .. فان الوثنية فى الجزائر الغربية فى حاجة إلى من يقمعها ..

والحق أنه لم يكذب كراسم محكمة التفتيش حتى اعتدت الحاضرين رهبة ووجوم ، وكانت هذه هى الظاهرة التى تحدث فى كل مكان ذكر فيه هذا الاسم الرهيب .. فان حاكم التفتيش الأسبانية كانت محكمة داخل المملكة ، وسلطة أقدم من سلطان الملك نفسه ، ولونامن الطغيان لم تسمع به البشرية من قبل .. ولا بدع ، فهى قائمة على الوشاية والوقعة ، فيها يضى الابن بأبيه ، والغريم بغريمه .. لا يذكر اسمها إلا تغل الناس اقية السجون ، وآلات التعذيب والهلاك ، وصنوف البؤس والتشريد والتكيل .. فى ظلها الرهيب لا يأمن الانسان على نفسه ، ولا يطعمش برىء إلى براءته .. وقد حدا سلطاتها المرهوب بكثير من السلاء الذين يبتون نقاء عتصرهم من الدم اليهودى إلى الانخراط فى سلك محاكم التفتيش ، فكانوا يعرفون باسم أنصار المجمع المقدس ، وكان لهم فى هذا الانتساب مقام كثيرة أبرزها اكتساب السلطان والسطوة وضمان السلامة والأمن

وقال فرنسيسكو دى فارجاس تعقيا على كلام زائره :

— نعم .. أذكر أنك من أنصار المجمع المقدس

فقال دى سيلفا وقد خطر له خاطر فجأى :

— هذا امتياز كبير ... ولهذا الناسة عجبت لك كيف لا تكون واحدا منا وأنت

التبيل ذو الشهرة !

— إنى لست من رجال الدين

— ولا أنا .. ولكن من دواعى الشرف أن يخدم الانسان فى هذا المقام كجندى

متواضع ..

ولما لم يقل دى فارجاس شيئا استطرد دى سيلفا يقول :

— طبعاً يؤسفنى أن المجمع المقدس يتوسل أحيانا بالنسوة ، لكن ماذا تريد ؟

إن سفك الدماء والتعذيب لازمان أحيانا لا تقاذا الروح لزوم الدواء المر للجسد .. إن الآباء الروحانيين هم أطباء سماويون .. وما أروع ياسيدى أن تشهد صبرهم وبراعتهم فى مداواة داء الكفر والزندقة ، وهو شر الأدوية جميعاً ..! إنهم يتعقبون العوارض المرضية باطراد حتى يستأصلوا السرطان من أساسه .. ألم تشهد قط حالة من هذا القبيل ؟

فلما أجاب الضيف بالنفى أنشأ دى سيلفا يسرد بالتفصيل تلك الأساليب البشعة التى

تبعها محاسن التفتيش في تعذيب التهمين بالكفر والخروج على الدين حتى تحملهم على الاعتراف ثم تحرقهم أحياء .. ولم يشأ دى سيلفا أن يكف عن هذا البيان رغم اعتراض منيفه واحتجابه بوجود سيدات في الاجتماع يفزعن هذا الكلام ، بل قال دى سيلفا ساخراً :

— نعت لجذدى قديم مثلك يبدى هذا الخوف والجزع ! إني على يقين أن السيدات يلدن هذا الحديث .. أما عن «المجمع للقدس» فيبدو لي أنك لا توقره التوقير الواجب هناك لم يطق دى فارحاس صبراً ، فرأى يقول في حدة وقد رفع رأسه اعتداداً : — اسمع يا سيدى .. إني لم أعود هذا التعرض من شأن مغرورين .. إن كنت تحاول الانتقام من شجاعتى فاني أرسلت من دعائي في الحروب أكثر مما في جسمك من دم .. وكنت أقاتل الرجال وجها لوجه ، لا أقف في السجون أشهد عذاب النساء والاطفال ..! اعلمك نسيت من أكون .. هل فهمتى ؟

يبد أن دى سيلفا لم يتأثر ، بل نهض في غير مبالاة قائلاً :

— لم أفهم تماماً .. وربما سويتا هذه للسائل فما بعد .. فاني ، مثلاً ، لا أدري لماذا تتحرش بي أنت ووليدك .. والواقع أنني جئت إليك الآن مسالماً ، وجئت وحدي ، رغم الاساءة التي لحقتني من هذا الولد الشقي .. نعم إني أخطأت .. وكان يجب أن أجيء ومعي الشهود ..

فنهض دى فارحاس :

— تقول إساءة ؟ أية إساءة هذه ؟

— إذا أنا اعتديت على اثنين من خدمك وأصبتكما بحراج بالغة ، ألا يعد هذا إساءة ؟

— ماذا تعني بالله ؟

وهنا جاء دور بدرو ، فنهض في شيء من الارتباك ، يبد أنه قال متفهماً في دى سيلفا : أضف إلى كلامك أن خادميك أطلقا كلاهما على فتاة ثم هاجماها .. فهناك تحريف

لواقع ..

— نعم .. نسيت .. إن الشقيين كانا يسليان مع معشوقة ابنك ، وهي بنى من فتيات حانة روابو ، زمدعى بيرز ..

فقال بدرو وهو يطبق قبضتيه :

— هذا كذب ..!

— واعد أن أتم ابنك الاعتداء على رجالي ، أركب الفتاة البنى على ظهر جواده

وذهب بها إلى الحانة .. أهذا كذب أيضاً ؟ إن البلدة مستطرب لباع هذه البيانات ..!

خيم صمت مطبق شعر بدرو في خلاله بتجهم أيه واضطراب أمه ، فود لو أنه أخبر

والديه بموضوع كاتانا على وجهه الصحيح حتى كان يتفادى هذا الموقف .. ومهما يكن

فإن دى فارحاس نهض قائماً وراح يقول في برود :

— إني لم أعلم بهذا ، وقد قصر ولدي في إطلاعي عليه ، وسوف نسوى هذا

للأمر بيننا .. وإذا كان رجالك أبرياء فاني سأدفع لك التويض اللازم .. على أنه

لا علاقة لهذا بالموضوع الذي كنا نتحدث فيه ، وهو أسلوبك في الأدب .. وإذا كان

في هذا ما يسوؤك ، فاني يسرني أن أقدم إليك الترضية اللازمة ..

وقال بدرو : وأنا أيضاً ..

فسار دى سيلفا إلى مدخل الشرقة قائلاً :

— إني لا أبارز فتياتاً أغرارا ، ولا شيوخاً مقعدين ..

فقال دون فرنسكو : حذار من هذا الكلام ..

— أما عن الترضية ، فدع موضوعها لي ..

وذهب .. فما كاد يتلاشى وقع خطواته حتى قالت دونا ماريافي اضطراب :

— إني خائفة .. ماذا ترويه يفعل ؟

— يفعل ؟ لا شيء .. إنه جبان .. إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيالي ..

ثم التفت إلى بدرو قائلاً :

— هل تعقبت العبد الهارب ؟

— نعم يا سيدى ..

— هل بينك وبين كاتانا ميرز علاقة غرام ؟

— كلا ..

— هل ذهبت اليوم إلى حانة روزاريو رغم أوامري ؟

— نعم يا سيدي . .

— حسناً . . من أجل هذا سأجلبك عقاباً لك على ما فعلت . .

الفصل السادس

لم يتردد دون فرنسكو في تنفيذ وعيده ، فقد جلد بندرو عشرين جلدة عقاباً له على اختلافه إلى حانة روزاريو التي يؤمها الأتقياء والأشرار خلافاً لأوامره ، وقصد بهذا التأديب أن يشب ولده على الطاعة والخشونة والاحتمال . . وكان بندرو عند حسن الظن به ، فقد تلقى هذه العقوبة بالصبر والامتنال دون تدمير ولا عقوق . .

فلما كانت التاسعة مساءً غادر البيت لقيام بجولة في ضوا القصر ترويحاً عن النفس من آلام السوط ، وفي بيته أن يعرج على قصر (لوزا دي كارفال) عساه يزود منها بنظرة عابرة قبل حلول موعده معها في مساء الغد . . وبينما هو يسير في الطريق العثم إذ سمع خطوات تتبعه ، فاستدار في مكانه فجأة وخنجره في يده اليسرى وبمناه على مقيض سيفه ، فجاءه في الظلام صوت معروف له يقول صاحبه في نبرات خافتة :

— لا تخف أيها الرفيق . . أنا جوان جارسيا . . وأحمد الله أنك خرجت من بيتك ، فاني في حاجة إليك . .

كان جارسيا متنكراً بلحيته الحمراء ، ولحيته تدل على الأهبة ، فقال له بندرو :

— ماذا جرى ؟ هل هم يطاردونك ؟

— لا . . ليس هذا ما حدث . . هو أدهى وأمر . . لا يمكنك أن أتحدث هنا . .

تعال معي إلى غرفتي في فندق (كورونا)

وما كاد يستقر بهما المقام في تلك الغرفة القليلة الأثاث حتى نفص جارسيا قصته في صوت متهدج ، فقال إنه سعى إلى البيت الذي تقيم فيه أمه من قديم ، فلم يجدها ، وعلم أن محكمة التفتيش قد اعتقلتها منذ شهر بتهمة ممارسة السحر . .

لم يدهش بندرو ، رغم ارتباكه ، من هذا النبأ . . فهو قد سمع من قبل إشاعة تقول إن العجوز (دوروثيا روبنو) ساحرة ولعل في هذا تغمير وجود ذلك الشيطان الذي يتمص ولدها (جارسيا) كلسكر . . يد أن (بندرو) تأثر لحال صاحبه ،

ودود لو يساعده بما في طاقته ، لولا استحالة هذه المساعدة ، فان ماتاً أخذ محاكم التفتيش لارحمة له . .

وقال (جارسيا) وكأنما يردد أفكار (بندرو) :

— ليتها كانت في عداد الأموات . . إنيهم سيغدبونها ، ثم يحرقون ما بقي منها . .

ثم أردف بلمحة للسميت :

— لكن هناك فرصة واحدة . . عليك أن تساعدني أيها الرفيق . . أنت الوحيد الذي يستطيع مساعدتي . .

ولما سأله بندرو عن كنه هذه المساعدة راح يقول :

— قد يكون للجمع المقدس قداسه كما يشتهي ، لكن لدال سلطانه في كل مكان إلى أن الآباء البجيلين يفرهم الذهب ككل الناس ، وأنا أعرف أكثر من شخص واحد استطاع أن يشتري بلال طريقه إلى النجاة . . إني أمتلك مالا كما تعلم . .

أشفق (بندرو) من هذا الكلام لما فيه من اللباس بالحكمة للقدسة ، حتى جعل يثقلت حوالبه توجهاً ، فقال جارسيا :

— أنا معذور في هذا . . إني على استعداد للشئ اقذا لأني ، لولا أن شئني لا يفيدنا . . ثم إني لا أستطيع مقابلة رئيس محكمة التفتيش . . بينما أنت تستطيع ذلك . . .

شعر (بندرو) بقسرة تمتش في ظهره . . فهو على استعداد للمساعدة في حدود القول . . لكن السعي إلى الأب (ايناسيو دي لورا) رئيس محكمة تفتيش حايين بهذا الاقتراح الذي ذكره جارسيا ، جعل الدم يجمد في عروقه . .

ولما آنس (جارسيا) نفوره راح يتوسل إليه قائلاً إنه الانسان الوحيد الذي امتلأت نفسه شهامة والذي يستطيع أن يعول عليه في إقذا أمه . . وإذ رأى منه ميلا إلى الاستجابة بسط خطته في هذا الصدد ، فقال إن (بندرو) سيتقدم إلى رئيس محكمة التفتيش بوصفه مندوباً من قبل شقيق (دوروثيا روبنو) التاجر في (فالنسيا) ، وأن هذا التاجر الدعو (جون جارسيا) يعرض مبلغ ثمانمائة جنيه تكفيراً عن خطايا شقيقته إذا تنازل الرئيس البجل بقبول الهبة . . ولما كانت العجوز قد اعترفت تحت

العذاب بممارسة السحر ، فمن الممكن الاكتفاء بما نالت من عقاب .. ويستطيع بدرو تفسير بوساطته بأنه قد قابل جارسيا في فندق (كورونا) عفواً ، وأن هذا التاجر التواضع قد التمس مساعدته في هذا الأمر وعهد إليه بالبلغ ، وأن مسئوليته تنتهى عند هذا الحد ، وأنه لا يعدو أن يكون وسيط خير ، وأنه لا يعرف عن التاجر شيئاً غير هذا ...

فقال (بدرو) :

— وإذا بحثوا عنك في الفندق ؟ ..

— لن يحدوني طبعاً ، فإني لست من البلاهة بحيث انتظر قدومهم ...

فهر بدرو رأسه قائلاً :

— إني أعرف الأب (ايناسيو) ... فهو أقرب في تدينه وصلاحه إلى القديسين ،

رغم شدته وصرامته . وهو ليس بالذى يرتشى ويضعف أمام أغراء المال ...

فقال جارسيا وهو يتشم ابتسامة فاترة رغم كربه وبلواه :

— أملك يابني الكثير تتعلمه عن طبائع الرجال وتأثير المال ... فهلا فعلت هذا

من أجلي ؟ ... إنك لن تستهدف لأقل خطر . لنباله أسرته ... ولو كان ثمة أذى

خطر لما سألتك شيئاً من هذا ...

جعل بدرو يفكر في الاخطار الملاحقة التي يتعرض لها إذ تصدى لاختصاص محاكم

التفتيش ذات السطوة الرهيبة ، بيد أن شهامة الشباب تغلبت في نفسه على دواعي التعقل ،

وإذا هو يقبل الاضطلاع بما يطلب منه . فقال جارسيا بعد صمت مؤثر وقد وضع

يديه على منكبي بدرو :

— أدعو الله أن يعينني على أن أرد إليك هذا الجليل يوماً ما ...

متى تريد أن أقابل رئيس محكمة التفتيش ؟ ..

— هذه الليلة . فالليل خير ستار لهذه الامور ، ثم إن أمي كما علمت قد لا تعيش

طويلاً بعد أن نالت من التعذيب ما نالت ...

وأخرج من تحت عباءته كيساً صغيراً ثقيلاً وقدمه إلى بدور قائلاً :

— إليك المبلغ ... سأذهب معك وأنتظر في الخارج ...

الفصل السابع

كره بدرو هذه المهمة التي فرضها عليه شكك طالعه وتورطه في صحة أناس من غير بيئته ، لكن لم يكن بد من أمامها برأ بوعده ...

وبعد المرور بعدد من الحراس الذين يغفرون بيت رئيس محكمة التفتيش جاين ،

دخل بدرو غرفة مستطيلة عارية من الاثاث إلا من مقعدين ومنضدة جلس الاب

(ايناسيو دي لورا) إليها مستغرقاً في الكتابة على ضوء شمعدان .. ثم نهض آخر

الامر باسقاط يده إلى زائرته الشاب الذى ركع أمامه ولم يده في اجلال واحترام ...

كان رئيس (محكمة التفتيش) يرتدى زى رهبان (الدومنيكان) وهو الرداء

الابيض يعلوه الصليب القضى .. وكان رجلاً طويل القامة في انحاء ، متوسط العمر ،

فصير اللحية ، واضح الجبين ، شامخ الانف ، صارم القم . تنبث من عينيه نظرات

الدهاء . ويشيع في هيئته علامة الحزم واليقظة ..

وفي الحق أن بدرو شعر بالرهبة في حضرة هذا الرجل حتى راح يتلعثم ويحجب على

أسئلته عن سبب مقدمه في اضطراب ووجل شديدين .. إذ جعل يقول :

— إني لم أحىء لأمر يخصني يا صاحب القداسة .. ولست أعرف شيئاً عن الموضوع

وكل ما هناك أتى قابلت شخصاً في فندق كورونا قال إن أو ... أعنى أخته للدعوة

(دوروتاروميرو) متهمة بالسحر .. وهذا الرجل يدعى جوان جارسيا ، من (ملقا) ،

أعنى من (فالنسيا) .. وهو من التجار .. وقد سألني أن أرجو قداستكم .

فرجع دي لورا يده قائلاً وقد اعتاد ولا ريب أن يستمع إلى للتلعثميين المضطربين :

— مهلاً .. هدى نفسك يا ولدى .. ماذا تريد أن تقول ؟ . فهمت إنك قابلت

تاجراً من ملقا أو من فالنسيا ..

— من فالنسيا يا صاحب القداسة .

— بديع .. من فالنسيا .. وهو من أقرباء دوروتاروميرو التي اعتقلها المجمع

(القدس) بتهمة معينة .. أهو كذلك ؟ .

— نعم يا أبت ..

— لا بأس .. استمر ..

وعاود بدرو الكرة ، ولم ينس هذه المرة أن يحتم محاولته بالإشارة إلى مبلغ التماغة حنيه يدفع كغرامة ، لأن (المحمم القدس) لا يحظى ، قط في أحكامه ولا يشتط ، واخت كلمه مؤكداً أنه إنما يعمل كوسيط بالنيابة عن أجنبي قابله في جاين ولمس بلواه بنفس فلما فرغ كتم رئيس (محكمة التفنيش) ابتسامه جديدة ، وقال وهو يتفرس في نظرات حادة غامضة :

— هل يعلم والحمد الفاضل بزيارتك هذه لى ؟

— لا يا صاحب القداسة .. إلى جئت الآن تواء من فندق كورونا .

— حسناً .. ولماذا لم يحضر للدعو جوان جارسيا إلى شخصيا ؟

— هو رجل متواضع مغموور لم ينل شرف التعرف بقداستكم .. وقد خشي ألا يحظى بالمقابلة ..

— وأين هو الآن .. ؟

فأجاب بدرو متعماً :

— هو نازل بفندق كورونا ..

— وأنت تنوى مقاتله طبعاً بعد انصرافك من هنا ؟

— نعم يا أبتاه ، لكي أبلغه قرار قداستكم ..

لم يغب مثل هذا السؤال عن ذهن جارسيا .. فقد اتفق مع بدرو على أن يعود إلى الفندق بعد انصرافه من دار رئيس (محكمة التفنيش) فلا يجد تاجر فالنسيا في انتظار لأن هذا التاجر لن يعود إلى الفندق أبداً .. فينتظر بدرو مدة مناسبة ، ثم يترك لدى صاحب الفندق رسالة يبين فيها قرار الأب ايناسيو .. وللقصود بهذه الرسالة أن تكون تعمية وتضليلية إذا كان هناك من يتابعه ، وأن يفهم منها أنه قام بمهمة الوساطة التي عهدت اليه ونقض يديه بعد ذلك من الموضوع نهائياً .. ثم يعود بدرو إلى داره من طريق متفق عليها ، ساكناً أشد الطرقات ظلمة ، فيقابله جارسيا في بيته ..

وقال الأب وهو ينفذ بنظراته إلى بدرو :

— يبدو لي يا بني أنك توطد صلاتك بالعرباء بعد تعارف يسير .. متى عرفنا

هذا الرجل ؟

— إلى قابله اليوم وأنا عائد إلى جاين بعد مطاردة خادم السنيور دى سيلفا .. وكان في فندق كورونا هذا المساء ..

— وهل مبلغ التماغة حنيه موجود معه ؟

— كلا يا أبت .. إنه عهد بالمبلغ إلى .. وهو الآن معي ..

فضحك دى لورا هذه المرة حتى بدت ثنياه ، قائلاً :

— إنه لمن الاشادة بأمانتك والتتويه بصيرة والحمد أن يعيد اليك أجنبي عنك ، بالتأمة حنيه ..

— إنه شديد القلق على أخته يا صاحب القداسة .

وفي الحق أن بدرو ما لبث أن فارقه الأمل في نجاح مهمته ، بيد أن ذلك لم يكن يعنيه الآن بقدر ما كان يعنيه الهرب من أمام هذا الرجل ومن سحرته اللافعة .. بل شعر أنه أقرب ما يكون إلى فأر صغير بين مخالب هرة ضخمة .

وما كانت القصة رغم صدقها في نظر رئيس (محكمة التفنيش) إلا أقرب إلى هت الأطفال ..

— إذن فسوف تقدم لى مبلغ تماغة حنيه .. بأية صفة ؟

فأجاب بدرو متلعناً :

— لكي تفضلوا قداستكم بالاقراج عن للرأه ، إلا إذا كانت جرائمها خطيرة ... والحقيقة أنى لا أدري .. فاني إنما أنكم بلسان السنيور جارسيا .

ضحك دى لورا ضحكة قصيرة أقرب إلى النباح .. فأيقن بدرو إنه مطرود شر طردة وقد تجلى هذا العرض القمى جاء به على صورته القاضحة وبدأ أنه رشوة سارخه لا ريب فيها .. ولئن ؟ . لسيف الله السلول . للرجل الأقدس عماد الدين وركبة الزكين ! ..

لا ريب أن بدرو قد ارتكب أفسح الخطأ حين أقدم على هذه المحاولة الفاسدة للثالثة ! ..

ومن عجب أن دى لورا قال له :

— أرني هذا اللبلغ ..

فأخرج بديرو الكيس من جيب عبائه وقد تملكه الدهش ، وقدمه للأب للجل
الذي شرف فيه من الذهب اللائع فوق النضدة وراح يعث به بأصابعه مفكراً ساخماً ..
وما لبث الأب دى لورا أن اعتدل في جلسته .. وبذل أن يرد النقود إلى الكيس
ورفضها كما توقع بديرو ، أخذ بعدها ويكديسها تكديساً بخيرة رجل الأعمال
وهو يقول :

— نعم إن دوريشا روميرو قد أدبت بجرائم منكورة (عشرة .. عشرون ..
ثلاثون) .. وهى قد اعترفت بممارسة السحر والانصال بالشیطان (خمسون .. ستون
سبعون ..) .. لكن صحيح أنها ندمت على ما فرط منها من هذه اللوثيات القبيحة
(ثمانون .. تسعون .. مائة .. وكديس الأب هذه المائة جانباً) .. ثم أن الجمع المقدس
لا يرغب في هلاك الذنب الآثم وإنما يريد إبعاده عن الشر والضلال .. (ثلاثون ..
أربعون .. خمسون) .. إن الرحمة ينبغي أن تمتشى دائماً مع العدالة جنباً إلى جنب ..
سرطان ما اعترى بديرو دى فارجاس تطور خطير وانقلاب غريب .. وإذا كان
الأمل قد خامره في إمكان نجاح مسعاه ، فقد تملكه إلى هذا اضطراب بالغ .. فهل
يمكن أن الأب ايناسيو قد ارتضى قبول المبلغ « وأن سيف أقبالسول أهل المساومة
والبيع ، وأن جماعة جنيه يمكن أن تقبض من محالب (ديوان التفيتش) امرأته في الحق
مقضى عليها بالموت والتحريق ؟

لقد كان بديرو يشيب في كل ثانية من هذه التواني التي استغرقها دى لورا في عد
النقود .. لا بل كان يفقد إيمانه الطبيعي ويشعر شعور اليقين بمبلغ سلطان المال ..
واستطرد الأب للجل وقد عد مائتين :

— وإن الجمع للقدس ليسره وقد جهد في تطهير نفوس الآثمين أن يردم إلى
عالم الحياة (خمسون .. ستون ..) .. ومن العدل أن يفيد الجمع المقدس عما يمتلكه
الآثمون للانتفاع به في شئون دينية صرفة ، وهكذا (ثمانون .. تسعون) يتجه بما
يمتلكون من حطام الدنيا من خدمة الشيطان إلى خدمة الإيمان .. وبذلك تكون
التوبة صادقة لاشية فيها ..

وأخذه الأب ايناسيو إلى الصمت ، فلم يكن يسمع إلا رنين الذهب .. فلما فرغ من
عد الثماعة بقيت خمس قطع ، فلما كان منه إلا أن أضافها في غير مبالاة إلى الكديس

الأخير .. ثم رد الأكديس جميعها إلى الكيس ، وفتح درجا في النضدة أودعه بداخله
وقال بديرو :

— ماذا أقول للسذور جارسيا يا صاحب القداسة ؟
فأخذه الأب إلى التأمل قائلاً :

— آه .. نعم .. قل له إن أخته سفيرج عنها من السجن بعد القد ، نظراً لاجراءات
رمية لا بد من استيفائها .. وله أن يقر عيناً لأن دوريشا الآن في حالة قبول وتطهر ..
— شكراً لك يا أبتاه ..

وركع بديرو فلم اليد التي مدت إليه ، وهم بالانصراف ، فسمع الأب يقول له :
— مهلا يا بني .. من الخير أن تسكن هذه المسألة .. وإذا تحدثت عنها لأى إنسان
غير السذور جارسيا جلبت على نفسك سخطى .. فقد يسيء بعض الناس تأويل رحمة
(الجمع المقدس) وتسامحه .. لعلك فهمت ما أرمى إليه ؟ ..
— هو ذاك يا صاحب القداسة ..

— إننا سنتناول هذا الأمر بالتفصيل في فرصة أخرى .. فانه لا يعمل بالشبان أن
يشلوعوا بمخدراتهم إلى هذا الحد حيال أناس غرباء .. والآن اذهب في رعاية الله ..
وطالع بديرو في عيني الأب مرة أخرى .. ذلك التهمك الحقيقى ، وخيل إليه بعد أن
أغلق الباب خلفه أنه سمع ضحكة رنانة .. لكن مهما يكن من شيء فقد انتهت المحنة
بسلام ، وبوسعه الآن أن يرف البشرية لجارسيا .. وإذا كان قد فقد بعض سذاجة
الشباب في بيت رئيس محكمة التفيتش فانه لم يلق باله إلى ذلك في تلك اللحظة ..

وذهب بديرو من فوره إلى فندق كورونوا وانتظر برهة ثم ترك عند صاحب الفندق
رسالة طبقاً لما تم عليه الاتفاق .. ثم غادر الفندق وسار في سلسلة من الأزقة المظلمة
حتى انضم إليه جارسيا في زى متسول وسأله عما تم ، فأجابه بديرو همساً :

— كل شيء لى ما يرام .. إنه أخذ النقود ووعد أن يفرج عن أمك بعد غد ..
وسرد عليه في إيجاز ما كان .. فراح جارسيا يدعو له ويباركه .. فقال بديرو :
— وماذا أنت فاعل بعد الافراج عنها ؟ .. كيف تخرجها من جايين ونحتق أنت
عن العيان ؟ ..

— سأدبر أمري .. عليك أن تنساني مهما يحدث .. إنك فعلت أكثر مما كنت أظن عندك ..

ثم أردف بصوت متهدج :

— لن أنسى فضلك ما عشت .. إني أهلك وأنت دى وحياتي .. أسرع الآن ! ..
وتصالحا بحرارة في الظلام .. فاخترق جارسيا .. وعاد بدرو إلى داره مرتاح البال
ناعم الخاطر ..

الفصل الثامن

لئن كانت لوزا دى كارخال تعجب ببدرو دى فارجاس وتميل إليه ، فأما كان ذلك من قبيل التسلية وقتل الوقت ، وقد شعنتها على ذلك مريبتها وابنة عمها الأرملة الشابة أنطونيا هرنانديز ، فأغرتهما بتسطير تلك الرسالة تستدرج بها بدرو للاقائها عند باب حديقة القصر .. فأما الزواج فذلك شأن آخر ، يتوقف على تحقيق مشروعات والدها المركز دى كارخال ، الذي لا يؤمن في الحياة إلا بالمال والجاه

فلما كانت الليلة المحددة للقاء ، هبطت لوزا ومريبتها إلى حديقة القصر بعد ذهاب المركز إلى حفلة خاصة في بيت الأسقف ، وعرجتا على الكشك الكبير في الحديقة حيث لبثت لوزا بعض الوقت تغنى بسوتها العذب الشجي ، وغرضها من هذا الغناء ، كما رسمت مريبتها ، هو إسماع من بالقصر ما هي فيه حتى يعلم المركز إن هو سأل ، ونقل تعريدها إلى مسامع العاشق المنتظر حتى يزيد هياما

وفي الحق أن هذا الغناء الشجي قد أسكر بدرو وهو واقف بباب الحديقة حتى خفف عنه انتقال الانتظار وانساء مضض الترقب وطول التشوق .. حتى إذا لمح طيفها آخر الأمر يمر في ضوء القمر بين الأشجار غير بعيد عند باب الحديقة ، زال عنه كل قلق وتوجس وتحضر لمواجهة هذا الموقف الذي بدا له أروع من موقفه في الليلة الماضية مع رئيس محكمة التفتيش ...

همس عيها تحية للساء وقد وقفت أمامه لا يفصلهما غير قضبان باب الحديقة .. فلما ردت تحيته بمثلها قال لها متلعنا وقد تبخرت تلك العبارات اللطيفة التي كان أعدها لهذه المناسبة :

— سمعت غناءك .. فيأله من غناء عذب !

— أتظن هذا حقا ؟

— نعم ...

— هل تغني ؟

— أحيانا .. ولكن صوتي رديء ...

وفي حلال ذلك كان بدرو ناظراً إلى المربية وهي تنتقل بين الأشجار غير بعيد ... ولما رآها ابتعدت واختفت تشجع وراح يقول لافتاة :

— كان إرسال تلك الرسالة تلطفاً منك .. إني لم أكن أحلم بمثلها .. كانت كمعجزة إنها معي الآن فوق قلبي .. وأستطيع أن أذكرها كلمة كلمة مثل آيات الصلاة !

ثم زاد استرسالا وقد زاد شجاعة ، فراح يقول :

— لقد كنت موقناً منذ البداية أنني سأكون لك الفارس المخلص للتفاني .. إني سأكرس حياتي لخدمتك ، وسأعبدك ، وسأسعى إلى المجد في سبيلك حتى أكون أهلاً لك ...

نعم .. ذلك هو أسلوب المحبين كما تصوره لوزا ! وكذلك قالت له همساً :

— ولماذا ؟ لماذا تهتم بي كل هذا الاهتمام ؟

— لأنني أحبك ...

— لكنك لا تعرفني .. فكيف تثق مما تقول ؟

وفي هذه اللحظة سمع وقع أقدام وأصوات في الزقاق الذي يقوم فيه باب الحديقة .. فهمست وهي تجذب المزلاج :

— رباة ! أسرع ! ادخل ! والا رأوك !

فدفع الباب ثم جذب خلفه برفق ، ووقفاً متسترين بالجدار حتى ابتعدت الأقدام .. على أن شذاها العطري وقربها منه قد أسكره ، وإذا هو يركع أمامها خجاة ويرفع يدها إلى شفتيه ..

وجلسا فوق مقعد حجري في ظلال الأشجار غير بعيد عن باب الحديقة وأنشأ يتدفق

بين يديها متحدتاً عن حبه في حرارة أنكرتها حتى نيت أنها كانت تتسلى وحتى شعرت بأنها تتذوق لذة الوجود لأول مرة في حياتها .

وحدها عن رحلته الوشيكة إلى فرنسا لكي يتلقى أصول الفروسية على يدي (بايار) العظيم ، وقال إنه سيتحرى أن يكون فارسها الجدير بها ، وأردف قائلاً :
— هلا أعطيتني يا آنسة تذكاراً أعزبه في مستقبل أيامي وأستمد منه الحظ والنوفيق ؟ ..

أما لويزا فقد انصرفت في غمرة هذه اللحظات التي لم تعد يمثلها في حياتها ، وإذا هي تهديه في غير تردد مندليها الأنيق الدقيق للعطر ، قائلة :

— وددت لو أهديتك شيئاً أفضل من هذا يا بدرو دي فارجاس ..
لكن هذه الهدية كانت لديه أفضل من وسام ملكي ، فتلقاها وهو في نشوة من السعادة لا حد لها ، وقال لها في صوت منبعث من أعماق القواد :
— إنني أضع حياتي وقلبي بين يديك ورهن إشارتك ..

وفي هذه اللحظة سمعا سعة بين الأشجار القرية مصدرها للرية ، فاستوى بدرو على قدميه وقال حمداً :

— مساء الغد ؟ .. سأكون لدى باب الحديقة كل ليلة ..
فأجابته بالقبول في صوت لا يكاد يسمع حين أقبلت للرية ، فلما انحنى لها قالت بخفاه :
— هل من تقاليد الأشراف دخول الحدائق وعدم مراعاة الأبعاد والمسافات في مثل هذه المواقف ؟
فأظهر البهتة قائلاً :

— أنا مسحور يا سيدتي .. لم أشعر أنني اجتريت باب الحديقة ..
— يا لك من كذاب ظريف .. والآن لا بد لنا من الذهاب يا آنسي .. هناك أنوار في داخل القصر ، ولا بد أن والدك قد عاد .



وعاد بدرو أدراجه في طرقات البلدة وهو في شبه ذهول لمرط سعادته .. لقد ألقي المستقبل ينسبط أمامه فسيح الآفاق ساعداً بالأحلام التهنئية الحالية .. إنه الآن يستطيع أن يضع للتسجيل بوحي من حبه الآخر القياض ..

ولم يكذب بدرو من بيته حتى برز شبح من ظلال الجدران وحمس يقول ويدرو يأخذ الأمانة للإقامة :

— بدرو دي فارجاس ؟
— نعم ..
— أنا (مانويل بيريز) ، شقيق (كاتانا) .. الذي يشتغل في السجن ..
— نعم ..
— إنك أعقدت شقيقتي من عدوان رجال دي سيلفا .. ولست أنسى فضلك ..
وأنا هنا منذ ساعة لكي أبعثك ..
— تبعدي ؟ !

— يجب ألا تذهب إلى منزلك .. هناك شرك منصوب .. إنهم ينتظرونك ..
أيقن بدرو أن الرجل محبول ولا شك .. ولذلك قال له :

— من هم الذين ينتظرون ؟ ..
— رجال المجمع المقدس .. إنهم أخذوا والدك ووالدتك وأختك إلى سجن القلعة .. وقد شاهدتهم يعني يدخلون السجن .. وسمعت الحديث الذي دار بشأنك .. وعند ذلك خرجت من السجن فوراً ، وإن كنت بهذا قد عرضت نفسي للاعدام ..
— سجن القلعة ؟ ! المجمع المقدس ؟ !

— نعم .. اذهب إلى حانة روارزو .. إن كاتانا سوف تساعدك .. عليك بالجيل ..
إنها ملجأك الوحيد للنجاة ..

الفصل التاسع

شل تفكير بدرو فجأة ، وراح يحرق في وجهه عذته في الظلام وهو شارداً للهب مازب الدهن ..
وبعد فترة طال مداها ، قال متلعثماً :

— أنا آسف أيها الصديق .. لم أفهم .. ماذا قلت عن (المجمع المقدس) ؟ ..
فكرر مانويل بيريز النبأ الصاعق مرة أخرى ، فلم يستوعبه ذهن بدرو إلا بعد جهد وعناء .. وإذا مانويل بيريز يمسك بمنكبه قائلاً :

— لا وقت أمامك تضيقه يا سيدى .. يمكنك الحرب بتسليق السور الشرقى ...
هيا ! اسرع ! على أن أعود إلى القلعة .

فأطاع بدرو ، وترك صاحبه يقوده مسافة محدودة ، وما لبث أن انزع نفسه من قبضة صاحبه حين تجلت له الحقيقة على بشاعتها ، وراح يقول :

— لماذا ؟ لأى سبب ؟ لا بد أن لديهم أسبابا لذلك . ماذا قالوا فى هذا المقام بالله ؟
قالوا ؟ إن (المجمع المقدس) لا يبين الأسباب أيها السيد ! إنه لا يجيب ! إنه يسأل ، وعلى الغير الجواب !

فقال بدرو وقد حجبت صورة أسرته خلف جدران السجن كل اعتبار آخر :
— سأذهب إلى العمدة ، سأذهب إلى الأسقف ! إنهم أصدقاء والذى .. إنهم لا يعرفون شيئا عن هذا ولا ريب .. هناك غلطة .. لا شك أنهم سينصرفون على الفور فقاطعه يريز متناسيا القوارق بينهما :

— لا تمكن أبله ! أية غلطة ؟ إن سيادة العمدة كان فى القلعة حين جىء بالدوق فرانسكو والسيدات . أظن أن الأسقف يستطيع أن يحرك أصبعا ضد مشيئة (المجمع المقدس) ؟ أكرر لك مرة أخرى إنه لا وقت أمامك تضيقه .

تذكر بدرو زيارته بالأمس للأب (ايناسيو دى لورا) .. فهل لما حدث علاقة بهذه الزيارة ؟ وهل كان اتصاله الشنوم بخاريسيا هو مبعث هذا البسلاء ؟ وهل اتخذ رئيس (محكمة التفتيش) هذه الخطوة سترا لموضوع الرشوة التى استحلها ؟
— سأقابل الأب ايناسيو ذاته .

— ويلاه ! ليتنى لم أتعب نفسى من أجلك !
وقف بدرو برهة مترددا لا يقر له قرار ولا يدري إلى من يتجه ويفزع فى هذه البلوى ..

وفجأة تذكر المركيز دى كارخال .. إنه الرجل الوحيد الذى يستطيع مساعدته لما يتمتع به من سمو المسكنة فى البلدة .. وكذلك قال صاحبه :

— المركيز دى كارخال ! سأذهب إليه !
فقال يريز بعد تردد :

نعم ، المركيز .. إنه من كبار النبلاء .. وإذا كنت وانقا منه فربما استطاع أن يراجه (المجمع المقدس) .. أنت تعرف هذا خيرا منى .. سأعجل الآن بالذهاب ، وإلا كان الاعدام نصيبى .. فى رعاية الله أيها السيد .

وهم أن يبتعد مهرولا ، فاستوقفه بدرو قائلا :
— شكرا لك أيها الصديق .. إن أنسى معروفك .
فقال يريز بخشونة :

— سيان تذكرت أو نسيت .. إنى فعلت هذا من أجل كاتانا ..
— أملك تخبر والذى بحقيقة الموقف ؟
— سأفعل هذا .. وداعا ..

وشعر بدرو بالوحدة للوحشة بعد ذهابه ، حتى لكأنه يسبح وحده فى خضم جاش متلاطم ..

وولى وجهه أخيرا شطر قصر المركيز عائدا أدراجه ، فطرق الباب مترددا مشفقا فى هذا الوقت المتأخر ، والنفس لقساء المركيز من فوره بعد أن عرف نفسه ، فأذن له بالدخول بعد لأى وتقاش ..

وأدخل بدرو مخدع نوم المركيز ، فلما القاه جالسا فى فراشه الضخم وهو فى رداء النوم راح يعتذر ويكرر الاعتذار ، فقال للمركيز :

— لا لزوم لهذا ... إنى لم أتم بعد ، وحتى لو كنت نمت ، فأتى دائما فى خدمة والدك ... ليس عندى أحب منه ولا أكرم ... ما الذى يشغلك ويقول بالك ؟ .. إن التجار إلى شرف مضاعف ... تكلم بحرية تامة واطمئن كل الاطمئنان ...

وفى الحلق أن هذه البوادر قد أقرت السكينة فى صدر (بدرو) وردت إليه عوامل الملائمة ، فراح يسرد القصة المروعة ، وقال إن للمركيز وهو يعرف والده حق المعرفة سرى معه أن هذا الاعتقال إن هو إلا غلطة جسيمة ... فليس هناك من هو أشد إخلاصا للكنيسة من فرنسكو دى فارجاد ، ولا معنى البتة لاتهمه بالزندقة والخروج على تعاليم الكنيسة ... ولكن بدرو لا يعلق على والده بقدر ما يعلق على والدته ولحقته ، فإن الصدمة شديدة على مثلها ولا ريب ، وخصوصا (مرسيدس) المعتلة

الصحة ... فهل عند الركيز ما يشير به في هذه البلوى ؟ ..

كان (بدرو) يتوقع أن ينهض الركيز من فوره لتخليص السجناء من الأسر ... وإذا الركيز يغلد إلى الصمت ملياً وهو يتخلل لحيته بأصابعه ، ثم إذا هو يقول أخيراً : —
ثق يا بني آنى أعطفت عليك من كل قلبي ... ويجزنى أشد الحزن أن يعتقل أفراد أسرته إلى حين ... وإنى غدا مشغول بأمور عاجلة ، أما بعد غد فيسرنى أن استقصى الأمر ... وفي خلال ذلك لا أشك أنها غلطة كما قلت ، ومستضح حقيقةها في وقت وجيز ...

حاول (بدرو) أن يتكلم وهو يلهث ، لولا أن أسترسل الركيز في خطبة فياضة مؤداها أنه لو كان الأمر متصلاً بالحاكم المدنية لما تردد في بذل المساعدة ، فأما وهو من شئون (الجمع المقدس) الحفيظ على تعاليم الدين والایمان فليس لأحد قط أن يتدخل ، وما على الانسان إلا أن يتقبل قرارات (الجمع للقدس) بالتسليم للطلق والاذعان التام وإلا عرض روحه للخسران وكان في آخرها من الفضالين المالكين ...
واختتم الركيز خطبته البليغة قائلاً :

— وهكذا يتعين علينا أن ندع هذا الأمر مطمئين إلى رئيس (محكمة تفتيش) جاني ، الأب (ايناسيو دى لورا) للجل الأقدس ، الذى هو بركة ونعمة في بلدنا هذه المحدودة ...

تذكر (بدرو) في هذه اللحظة صوت الأب (للجل الأقدس) وهو يعد النقود الذهبية ويكدسها عشرات ومئات ، فاستشاط غضباً ، بيد أنه تمالك . وقد فارقه الأمل بعد الذى سمع :

— إن خاتمكم تصحون لى أذن ...

— ... أن تعتمد على الله يا بني العزيز ، وعلى عدالة (الجمع المقدس) إنى سأفعل كل ما فى قدرتى ... كل ما فى قدرتى ...

فقال بدرو وهو يكظم غيظه وحنقه :

— وبم تشيرون فخاتمكم على فى هذه الليلة ؟ .. إن بيتنا قد احتله الجنود ... وإذا هبت إلى الفندق فيسقبس على ... ليس لى مكان أذهب إليه ...

كان بدرو يطمح أن يؤويه الركيز فى داره هذه الليلة ، وإذا هو يقول له : — لا مكان ؟ .. هناك يا بني مكان واحد تذهب إليه ... عليك أن تقصد إلى القاعة من فورك وتسلم نفسك ا ... لو فعلت لكان فى هذا دليل براءتك . ، ولكن برونا على الولاء لوالدك ... عليك أن تشد أزرك أبويك فى ساعة العسرة والضيق ... بالله من رأى ظالم ا ... أو يحرم أسرته من بقائه حراً طليقاً حتى يكون أملهما الوحيد فى النجاة ؟ ..

لقد سأل الركيز أن يقيه تحت سقف بيته ساعات حتى الصباح . وإذا هو يقاطعه قائلاً :

— إن ما تطالب أبها الشاب لهو المستحيل بعينه .. أنه يرضى لأخطر النتائج . . ان كل من يؤوى شخصاً تتعقبه محاكم التفتيش فهو مدان مثله .. فليس من اللائق إذن أن تطلب شيئاً هو بطبيعة الحال مرفوض ..

غلت مراجل الغضب فى صدر بدرو . . وفكر فى هذه اللحظة فى مانويل بيريز الذى خاطر بحياته من أجله ، وجعل يقارن بينه وبين هذا النيدل الأجوف الذى يزعم أنه صديق والده ، ولا يتورع مع ذلك عن الضن عليه بأيسر المساعدة .

لم يسعه إلا أن يستأذن .. فما أعجبها من سخريه حين سمع الركيز يقول له :

— مرحبا بك فى كل وقت .. من دواى سرورى أن أمد بالرائى والمشورة ابن صديق لى حميم وإذا احتجت إلى خدمائى فلا تردد فى المجئ . إلى .. وأرجو تبليغ سلامى وتحياتى إلى والدك الفاضل . . ولست أشك فى أنهما سيقفان بالحرية عما قريب .. وللقصوم أنك ذاهب الآن إلى القاعة .. فهذا أفضل ..

بيد أن بدرو لم ينتظر برهة أخرى حتى لا يفلت منه زمام أعصابه ويرتكب جريمة فظيمة .. فهرب من القاعة مولياً وجهه شطر الباب الخارجى قبل أن ينتظر مجئ الخادم لارشاده .

الفصل العاشر

وقف بدرو فى الميدان الصغير الذى يقع فيه قصر الركيز يفكر فيما يفعل . . ترى (م - ٣ - فارس قسطله)

هل يسلم نفسه ، أم يعمل بمشورة بيرز ويركن إلى الجبال ؟ ..

يبد أن الأحداث لم تلبث أن رسمت له سبيل العمل .. فبينما هو كذلك إذ برز إلى الميدان الصغير جمع من الرجال يعملون للصيايح التي انعكس ضوءها على خوذهم وسمع لهم صليل قتل ذلك على أنهم من الجنود .. فسارع بدرو بالأزواء في ظل إحدى الأشجار المنتشرة في الميدان ، بينما سمع قائلا منهم يقول :

— أراهن أن مرشدنا القمين قد كذب علينا .. ما الذي يدعو دى فارجاس إلى طرق باب نخامة المركيز في هذه الساعة ؟ .. لاشك أنه بلاغ كاذب ..

كنم بدرو أنفاسه .. فان هؤلاء الجنود يبحثون عنه .. ولا شك أن أحد المارة شاهده وهو يطرق الباب ، فأبلغ عنه ..

وقال آخر رداً على التسكك الأول :

— هذا هو الأثر الوحيد الذي أماننا .. وعحسن أن نتنظر قليلا ، ثم نطرق باب القصر بدورنا ..

ووقفوا على قيد خطوات من بدرو الذي التصق بجذع الشجرة .. وقال قائل : إنه يحسن بهم أن يغكروا طويلا قبل إفلاق راحة المركيز ، فانبرى كبيرهم يقول :

— ويحك ! .. إنى تلتفت الأمر بأحسار دى فارجاس الأصغر أينما يكون .. ٥١
المجمع للقدس لا يجرأ بدوق ولا مركيز ..

صح لدى بدرو أن هؤلاء من رجال دى لورا وليسوا من الشرطة .. ولما ألقى ضوء الصيايح بنيت هنا وهناك أيقن أنهم سيرونه إن لم يسارع بالابتعاد ، وفعلوا صاح أحدهم :

— الله ! .. الله ! .. من هذا ؟ ..

وفي لمح البصر ابتعد بدرو عن جذع الشجرة وراح يركض بكل قواه متجه إلى الناحية الشرقية من البلدة حيث السور أكثر انخفاضا ، ومطاردوه يبعدون في أثره .

لكن الحظ كان حليقه .. فقد ساعده الظلام والنواء الطرقات على أن يسبق مطارديه وكان له من شبابه الدافق ووفرة حيويته وحفة حركته ما هبها له أن يبلغ ناحية منخفضة

من دور البلدة قبلهم ، فتسلقه قبل أن يدركوه ، وهبط إلى الناحية للناحية متدحرجا على الأرض وصيحاتهم ترن في سمعه ..

* * *

تحدث كاتانا بيرز فوق فراشها القش في غرفتها بأعلى حانة روزاريو وقد بهاها النوم هذه الليلة على غير العادة رغم تعبها من الرقص مزمنة هرنان سول ..

فهل كانت تفكر في هذا القصر الأنيق الوسيم الذي يسيطر وعصايته على الجبال فيما بين جان وغراناطة يقتلون ويسلبون ، والذي كان يشتهبها بكل قواه ؟

كلا .. لقد انحصرت تفكيرها في بدرو دى فارجاس ذلك الحبيب الذي كان يحقق قلبها بأعنف الحب له والذي هو أمتع عليها من نجوم السماء !

وما من شك في أنها ستقضي حياتها في ظل رجل مثل هرنان سول اللص الجريء ثم تطوى أيامها وتشيخ دون أن يفارقها الحزن إلى بدرو دى فارجاس ..

ولما كل ذهبا من طول التخيل والتفكير أخذ النوم بمعانده أجفائها ، فلما هي تساقطت على صوت سانسكو لوبيز صاحب الحانة يطرق بابها ملحا . فلما فتحت له مستفسرة عما يريد بأدورها قائلا :

— هو أمر يخص بدرو دى فارجاس الشاب ..

ولما رددت كاتانا الاسم منذهلة قال لوبيز :

— هو هنا .. وموضوعه متعلق بالمجمع للقدس .. وقد قبض على أسرته وأودعت

سجن القلعة .. وكاد يقبض عليه لولا أن أفلت بأعجوبة .. وهو يريد أن يعتصم بالجبال إلى أخفيتها في عزن القش بأعلى الاسطبل حتى الصباح .. لكنه مجروح ..

ولما رآها تحمق فيه انفعالا وهي تكمل ارتداء ملابسها استطرد قائلا :

— اعطيه بعض الطعام والبيت .. أنا لأريد أن أتورط في هذا الموضوع .. وأول

الشيء تفعلينه في الصباح هو العمل على ذهابه من هنا بمساعدة هرنان سول

فصاحت به كاتانا تنهيه بالجبن ، بيد أنه قال إنه مع رغبته في مساعدة الشاب لا يريد أن يكون مصيره الهلاك واللوث حرقا على يد المجمع للقدس .. وتركها وانصرف وهو يهر كنفه ..

وسرعان ما هبطت كاتانا إلى القاعة العمومية في الحانة حيث ملأت سلة بالطعام ، ثم شقت طريقها في الاصطبل للنظم بين البهائم وخدم الاصطبل النائمين وارتقت السلم إلى مخزن القش الملوئ ، فطرفت بابه برفق وهمست قائلة :

— أنا كاتانا !

ولما رفع بدرو الباب تسلفت إلى الداخل وهي تشير إليه أن يلتزم الصمت ، وانتظرت حتى أزيل الباب مكانه ..

ورأت من هيئته في ضوء الصباح مامزق نياط قلبها .. فقد ألفتها شاحبا أشعث الشعر مخضب الساق بالدم .. فهتفت برقة قائلة :

— ماذا فعلوا بك أيها السيد للسكين ؟

فقال في سكون وهدهد :

— لم يفعلوا كثيرا حتى الآن .. أنت والله ملاك يا كاتانا .. هل معك بعض التبن

في هذه السلة ؟

وراح يقص عليها ما حدث بين الضغ والازدراء وهي تضعد ساقه .. فلما فرغت قال لها :

— أنت ملاك كريم .. إنني شعرت بالوحشة طول الطريق إلى هنا .. وأراك قد جعلت مني الآن رجلا آخر .. سأقبلك جزاء ما فعلت ..

— كن عاقلا أيها السيد .. ليس هذا وقت التفتيل .. ترى من اتهمك فمى المجمع للقدس ؟ أهو دى سيلفا ؟

أزعجه هذا الرأي .. فانه لم يفكر في دى سيلفا .. وقد تذكر الآن ذلك الحظ الذي شجر في الكشك ، وما نفوه به الرجل من تهديدات مسترة ، وما أشار اليهم صلاته بجماعهم التفتيش .. وإذن فان ما ذكرته الفتاة ليس بمستبعد ، وإن كانت هذه القصة لا يقدم عليها إلا الجبناء الأندال ..

ونظرت إلى ملابسه الجديدة للمزقة التي كان قد ارتداها لمناسبة مقابلة لور

وقالت له :

— هل كنت في حفلة ؟

— لا .. ليس هذا تماما ..

لكنها تكلمت بالحقيقة ، وشعرت بالغيرة تحرق أحشائها ، وإن كان وجهها لا يرم

من شيء .. ثم قالت فجأة :

— أهي جميلة .. ؟

— ماذا تصدين ؟

— أفصد الفتاة التي لبست ملابسك الجديدة من أجلها هذه الليلة ؟

حق بدرو عابسا .. فقد روعه أن مثل كاتانا تتحدث عن لورزا دى كارفال

أميرة أعلامه ، في علباء ملكوتها ..

وفطنت كاتانا إلى ما به .. فهتفت أول الأمر متعصبة ، وما لبثت أن أشاحت بنظرها

وأعربت عن أسفها .

فتملكه الحجل ، ولكنه قال لها :

— هناك سيدة عظيمة حسناء يا كاتانا ، قد وضعت نفسي في خدمتها .. فليكن

لك في هذا الكفاية .

لم تعجب كاتانا ، بل شعرت أنها تستحق هذا التأنيب .. فهو يجري في الحب على

سائل أشراق عصية .. ولو أن منافستها كانت فتاة من طرازها لفكرت في قتلها ..

لكن عظمة السيدة جعلت للسائلة لونا آخر .. فهو يحق له إذن أن يتفانى في الولاء

لسيدة نبيلة من عظمه السامى المجهول لديها ، وما عليها هي إلا أن تقنع بما يجود به عليها

من اهتمام ورعاية ..

تلك كانت نظرة الاثنين إلى الموقف ، وقد قبلها كلاهما واعتنقها على أنها الحقيقة

الواقعة التي لا معدى عن الاذعان لها والتسليم بها ..

وقالت له أخيرا :

— لتدبر الآن خطة العمل .. عليك أن تباعد عن هنا في الصباح .. هل تعرف

(هرنان سولر) ؟

— اللص .. ؟

— نعم ..

— إني رأيته هنا في الحانة ..

— إن له مقراً خاصاً بين الجبال في اتجاه غرناطة ، على مسافة فرسخين من هنا .. وبما أنك أن تقم لديه حتى تقرر ما تفعل .. وعلى أسوأ الفروض يمكنه أن يذهب بك إلى البحر ، في ملقا أو فالنسيا .

— ولم يفعل هذا ؟ إنه لا يعرفني .. ؟

فقلت وهي تتكاف الابتسام :

— لكنه يعرفني أنا .. إنه من أصدقائي ..

— لكن ليس معي مال .. وليس هو بالرجل الذي يفعل شيئاً في مقابل لا شيء .. هذا شأني .. فدعه لي ..

ولما أدرك المعنى الذي ترمي إليه تملكته الغيرة ، فقال عتداً :

— إنه نعم الصديق ..! لكن شكراً لك .. بوسى أن أدبر أمري ، فاني أعرف

الجبال ..

فهزت رأسها قائلة :

— لن تستطيع الحياة في الجبال والأبواب كلها مغلقة في وجهك بسبب المجمع للقدس .. أما هرنان فهو أملاك الوحيد .. إن شقيقه أعدم حرقاً في حكمة التفتيش بمدينة اشبيلية ، وهو لذلك يكره المجمع للقدس ..

على أنها كفت فجأة عن متابعة حديثها وانجبت بنظرها إلى الباب قائلة :

— هل سمعت شيئاً ؟

— لا ..

والواقع أنهما لم يبصرا تلك العين التي كانت تنظر إليهما من ثقب في الباب ثم انسحبت على الأثر .. وتفسير أمرها أن أحد خدم الاسطبل للدعوى جوزيه قد استيقظ عند حضور كاتانا وسماع الحديث المثير ، فدفعه الفضول إلى تسلق السلم لمراقبة السر .. فلما رأى كاتانا وبدرو جالسين متقابلين لم يجد في هذا ما يبعث على الاهتمام ، وعاد من حيث جاء ..

وقالت كاتانا حين لم يطرق معها غير الأصوات العادية منبئة من الاسطبل :

— لا شيء .. إني سأذهب بك إلى هرنان في الصباح ..

فقال متردداً :

— والخطر بالنسبة لك ؟

— هو لا شيء ..

فقال وقد تملكته فورة إعجاب وتعلق :

— يا إلهي .. إني أجبك ..

— وأنا أجبك ..

قال نحوها بهم بتقيلها ، وإذا وقع حوافر جياد بملأ الحوش ، مقترنا بصليل أسلحة ، وطرقات عنيفة على باب الحانة ..

وسرعان ما نهضت كاتانا وأطقت للصباح . واخفت سلة الطعام في ثيابا القش ، وجست خلف الباب ترهف السمع .

فلما سرى إليها ضجيج منبعت من الحيل والبغال وغلان الاسطبل وفتح الأبواب ، قالت له :

— اختبي خلف القش .. سأنزل لكي أريهم قسى .. إن أحداً لم يرك هنا .. سأولى قضيلهم ..

ورفعت الباب وأنزلته خلفها ، وإن هي إلا هنية حتى اندست في غمار المجمع المقشد أمام الحانة .

الفصل الحادي عشر

كانوا حوالي اثني عشر من الفرسان ، ووقف سانكولوير أمام قائدهم للعتلى صهوة جواده يقول له :

— كلا ياسيدي الكابتن ، هو ليس هنا ، ولم يحضر إلى الحانة هذا المساء ..

نعم .. إني أعرف بيدرو دي فارغاس كما يعرفه أغلب الناس .. فقد اعتاد أن يمر بالحانة لارواء عطشه .. لا .. لم أر ياسيدي الكابتن أحداً يمر في الطريق .

أما كاتانا فقد قاطعت قائلة :

— لكن رأيته .. وكان ذلك منذ ساعة . فقد استيقظت على نباح كلب الحراسة .

ولما نظرت رأيت رجلا في الطريق يسير مسرعا صوب الجبال ، حتى قلت لنفسى إن هذه ليست ساعة يسير فيها انسان مستقيم .

فأحدث هذا الكلام ضجة بين الفرسان حتى اقترح بعضهم الاسراع في تعقب القريسة . إلا قائدهم الذى لم يفتح بهذا الكلام وهم أن يصدر الأمر بتفتيش الحانة ، لولا أن استرعى نظره الفتى جوزيه الذى وقف دون الجميع يبتسم .

فصاح به قائد الفرسان يستدنيه منه قائلا :

— يلوح عليك الدكاء يا فتى .. شاذا تعرف ؟

وسرعان ما تلاشت ابتسامة جوزيه وأنكر أنه يعرف شيئا . . وما هو إلا أن أمسك بعض الفرسان بتلابيبه يلوون ذراعيه بنساء على أمر قائدهم حتى صاح مسترخيا وقال إنه سيتكلم .

وقد قارن الفتى بين المذاب الذى سيصديه على أيدي هؤلاء الفرسان وبين النتائج المترتبة على الكلام ، فاختار أهون الشرين في تقديره ، وإن أخفى دور كاتانا فيما يصرفه وحدثهم عن الفارس المختفى في مخزن القش بأعلى الاسطبل ، فقال إنه دلف إلى الاسطبل وارتقى السلم دون أن يعرف إن كان هو دى فارجاس أو غيره .

ولم يكذب جوزيه يتمم كلامه حتى هروا الفرسان إلى حوش الحانة تاركين الفتى يحرك ذراعيه غير مصدق بنجاته ، وإذا كاتانا تهمس في أذنه قائلا :

— لقد دنت نهايتك أيها الشقى ، فأبحث عن قسيس يصل على روحك مقدما .



وجاءوا بيدرو دى فارجاس إلى الحانة ، قسيدا وبديه ، وفيها عدا ذلك عاملوه بالاحترام اللائق بمكانته .

أما سانكولوييز وحاشته فقد كانت لها معاملة من صنف آخر . . فإن رجال محكمة التفتيش بعد أن وضعوا أيديهم على طريدتهم راحوا يسيثون في المكان فسادا وأتوا على ما فيه من طعام وشراب وكادوا يعتقلون سانكولوييز ذاته لولا أن صرح لهم بيدرو إنه دلف إلى الحانة بغير علمه .

وكان جل ما يشغل بال بيدرو في هذا الموقف هو كاتانا ، لكن سرعان ما أدرك

أنه لا محل لهذا القلق . فإن الفتاة عرفت كيف تندمج مع الجنود تمازجهم وتعايشهم في أحوالهم في ألوان مختلفة من الرضى والغضب ، بل إنها تناولت قيثارها وراحت تعرف عليها وتغنى وترقص حتى كان لها الفضل الأول في انقاذ الحانة من النصارى الشاملين في هذه الاثناء كان بيدرو ينظر إليها فلا تكاد تعرفه . فأدرك أنها تتكلف هذا الأسلوب العادى لنفسها ، ولم يسعه أن يلومها في شيء . . .

ثم اشتد به الجهد وهو جالس إلى مائدة بين جنديين ، فتدلى رأسه ، وهوى فوق المائدة غارقا في النوم . . .

الفصل الثانى عشر

طلع النهار ونفض الجنود عنهم سكرة الليلة الماضية ، وتأهبوا للعودة إلى (جاين) وأجلس (بيدرو) على جواد خلف أحد الفرسان وهو مقيد الذراعين مشدود بحبل إلى الخدي الذى أمامه . . . وكانت (كاتانا) تدور بالماء على بعض الجنود اطفاء لسير الحجر إلى احتوتها بطونهم ، فاتهرز (بيدرو) هذه الفرصة وطلب كوبا لنفسه . فقالت له الفتاة حسا وهي تدنى الكوب منه وقد ركزت فيه نظرة ذات مغزى : الشجاعة والأمل . . . ومهما يكن فقد غادر الجنود الحانة مع أسيرهم تشبههم كاتانا بنظرها حتى غابوا عنها واندمج موكبهم في غمار أفواج الأهليين الذين كانوا يقصدون إلى البلدة ركبانا وراجلين ومنهم فلاحون في ثيابهم الزاهية وكأنهم في يوم عيد . . . وقد عجب بيدرو رغم الذى هو فيه من هذه الحركة غير العادية التى شاهدها في الطرقات المؤدية إلى البلدة ، حتى تذكر أخيرا طابع هذا اليوم الخاص بين أيام الأسبوع . . . فقد كان هو اليوم المحدد لانقضاء الجلسة العلنية لمحكمة التفتيش حيث تصدر الاحكام ضد المتهمين بالردة والكفر ، فمنهم من يحكم عليه بالجلد والتجديف في السفن ، ومنهم من يكون عليه الجلد والسجن ، ومنهم من يلقي في الحرق ، وكان شائعا أن الحرقه ستفوز هذا اليوم بستة من المتهمين . . .

والواقع أن هذه الذكرى أصابت بيدرو بدوار طارىء . . . نعم أنه شهد (محارق التفتيش) أكثر من مرة حتى كانت لديه شيئا مألوفا . . . أما اليوم وهو على هذه الحال فقد كان للذكرى طابعها المروع المشوم . . .

ولما بلغوا المدينة جعلوا يشقون طريقهم في غناء متزايد وسط الخلائق للتقاطرة من كل مكان ، حتى إذا وصلوا إلى ميدان (سانتا ماريا) المواجه للكاتدرائية تعذر عليهم أن يواصلوا السير ، فلم يكن بد من وقوفهم في غمار هذه الكتلة البشرية للتراسة حتى تنتهي اجراءات المحكمة العلنية ...

ونظر بدرو إلى الليدان ، فإذا في وسطه فراغ يحف به الجنود احاطة السوار بالمصم وفي هذا الفراغ أقيمت منصة منخفضة ، صفت فوق جانب منها مقاعد خشبية مستطيلة أعدت لجلوس المحكوم عليهم ، وفي مواجهتها مقاعد خاصة لرئيس محكمة التفتيش وأعضاء الهيئة الادارية للبلدة ، وغير بعيد أقيمت المحرقة بقضيلتها السوداء وسلاسلها للتفحمة ، تكاد تحجبها أعواد الحطب الوفيرة التي أعدت للنسابة الحافلة .. ولم يطل باصحابنا الوقوف حتى سمع ترتيل متباعد أخذ يدنو رويداً ، فتكاتف حراس المحرقة وأفسحوا الطريق الموصل بين الليدان والقلعة ، وسرعان ما حيم الصمت رهيباً فوق الجوع الحاشدة ، واشترأت الأعناق ، وحدثت الأعين ، وأرهقت الأسماع ...

ودلف اللوكب الرهيب إلى وسط الميدان ، تحقق في مقدمته راية عسك التفتيش وفي طليعته صف من الرهبان المرتلين بارديتهم البيضاء والسوداء والرمادية ، يتبعهم صف آخر قوامه المتهمون مرتدين جلابيب صفراء فضفاضة رمت عليها صلبان سوداء من أمام ومن خلف ، وقد التفت حبال بأعناقهم ، وأمسكوا بأيديهم شموعاً خضراء طويلة غير موقدة ...

وكان للهمون يتعشرون في سيرهم من فرط ما استهدفوا له من التعذيب ، وقد اشتد امتناع وجوههم فكأنها وجوه الموتى ..

وكان بينهم امرأة عجوز عجزت عن السير ، فشددت إلى حمالة خشبية حتى جعل جسدها الفاني يتخبط فوق أرض الشارع وانبعث منها صرخات تفتت الأكباد .. وارتيق للهمون للنصة متساكين مضطحين ، واستقروا في اللواضع التي خصصت لكل منهم حسب ترتيبهم في صدور الأحكام وقد زاعت منهم الأعين وارتسمت على مخنهم علامات القهول البالغ وجعلوا يحذقون أمامهم بنظرات شاردة تجردت من أسباب الوعي والرشاد ..

وانتهى اللوكب بصف آخر من الرهبان المرتلين وفصيلة من الجنود .. وأقبل من الكاتدرائية بعد ذلك أكابر الكنيسة ووجوه البلدة ، يتقدمهم الأسقف والقساوسة بينهم العمدة والأشراف في ملابسهم الخمالية والحريرية الموشاة بالذهب والبرصعة بالمالس على جعل القلاحون يحذقون أمامهم مبهورين بما يشهدون من مجالي الأبهة والفخامة .. كما كان بينهم المركز دي كارنيل ودييجو دي سيلفا الذي زانت قلنسوته ربشة حمراء وعلية ماسية ..

يبد أن هؤلاء جميعاً لم يكونوا في الواقع سوى طلائع لرب اللوكب ومناطق عقده ، وهو الأب ايناسيو دي لورا رئيس محكمة التفتيش .. فقد شخصت اليه كافة الأعين وهو يرتقي للنصة في مسوحة الأبيض ويجلس فوق للقعد المواجه لمكان للتهمين ، ولولا بناء السوداءوان اللامعتان لكان في جموده أقرب إلى تمثال من الصوان ..

وافتححت الجلسة بقداس أقيم أمام هيكل مؤقت ، ثم نهض الأب دي لورا يلقي خطاباً الذي بصوت جمهوري رنان كان ينفذ إلى الأسماع وكأنه وخز الحراب ، فتحدث عن الكفر والزندقة ، وعن غضب الخالق الديان ، وعن عذاب جهنم .. ثم عرض إلى رحمة الكنيسة التي تظهر للتهمين بالعذاب البدني فتستخلص أرواحهم من الجحيم الأبدى ..

ومضى الأب دي لورا في خطابه حتى كل بدرو من السماع ومن النظر إلى ما يدور فسرحت الطرف حوله متعباً مضطرباً ، فأراعه إلا أن شهد بين الجنود اللاتفين حول النصة جوان جارسيا وقد لبس مثلهم خوذة فوق رأسه وذراعاً فوق صدره ..

ترى ماذا يفعل جارسيا هنا ؟ .. أليس هذا هو اليوم للقرر للأفراج عن أمه ؟ .. فلم إذن

ولم يسترسل بدرو في أفكاره ، بل جعل يحلق في وجه جارسيا ، فألفاه متجهين معاً إلى العجوز المخططة القافية التي أجلس فوق للنصة بين للتهمين من أفراد اللاتفين ، ولما أغم بدرو النظر إليها عرف فيها بعد لأي دوريتا روميرو ، أم جارسيا وكانت المعجوز أقرب إلى اللومياء ، وقد تقلعت سحنها فاستعالت إلى صورة

مؤثرة تنضح بالآلم والعذاب .. ولم يكن جارسيا يحول نظره عنها طرفة العين ، وإنما كان بين قينة وأخرى يربط غفته بلسانه ..

كيف بالله وقت هذه العجوز هنا وقد وعد الأب دى لورا بإطلاق سراحها اليوم ! ربما كانت هذه طريقتها فى التنفيذ العلى ولعله متى جاء دورها فى صدور الحكم عليها أن يعلن الافراج عنها وإخلاء سبيلها ..

واختم الأب دى لورا خطابه الحافل ، فساد للصمت رهيبا . واتسعت الاحداق انفعالا وترقبا ، فقد حلت اللحظة الفاصلة ..

وانبرى أحد رهبان محكمة التفتيش ينادى للتهمين واحداً واحداً لسماع الأحكام الصادرة فى حقهم ..

فهذا فرنسكو كادينا قد نهض متعرا وارتمى على ركبتيه أمام رئيس محكمة التفتيش وهو يرتعد من رأسه إلى قدميه .. وعرف فيه بدرو زارعا موسرا من أصحاب مزارع الزيتون فى ضواحي جاين . وله زوجة شابة حسناء كان مغرما باللباسها أحدث الأزياء وأبدعها .. فاما عن ثروته فعلمها الغناء الآن ، فقد صادر الجميع للقدس كافة ممتلكاته من مال ونشب ، كإفعل بسائر المتهمين اللذين لم يبق لهم غير الجلود والعظام .

وسرد الراهب جرائم كادينا .. فاذا أجداد أمه قد ثبت أنهم من اليهود ، وإذا هو قد اعترف (تحت التعذيب) بالردة إلى الديانة اليهودية .. وفظسراً لا أبداء التهم من التوبة والتندم إزاء هذه الكبائر ، فان المحكمة تكفى بجلده ثلثائة جلدة على ظهور الخيل ، والحكم عليه بعشر سنوات يقضيها فى سجن التجديف فى سجن الحكومة

لم يكن معنى هذا الحكم سوى الموت البطيء .. فهو يمثل فى تسيير المحكوم عليه عارى الظهر فوق جواد يطوف به البلدة ، والجلادون من خلفه يلهون بدنه بضربات السياط استيفاء لعدد الجلديات المحكوم بها .. وبعد ذلك يزج به فى مقاعد التجديف فى أعماق السفن تجوب به البحار عشر سنوات لاتنقص يوما واحداً

وما كاد المحكوم عليه يسمع هذا الحكم حتى راح يئنهل بين رئيس محكمة التفتيش تصرعا :

— الرحمة يا صاحب القداسة ! فى السجن ، ذقت للعذاب ألوانا وأشكالا .. على كافة الآلات ! .. الرحمة الرحمة ، يا صاحب القداسة ! ..

فأومأ دى لورا بيده ، فدنا أحد الجلادين من كادينا وأمسك به وورده إلى مكانه حيث جلس يهنئ ويعملق وقد أيقن بدرو من حاله أنه لن يصل حيا إلى سجن التجديف ...

وتودى بانثيتو ماران .. وكانت تهمة الردة إلى اليهودية أيضا .. وقد حكم عليه بمائتى جلدة وثمانية أعوام فى التجديف .

وكان ذلك شأن زوجته دوليس ماران .

واستمر الراهب فى تلاوة التهم والأحكام بلهجة كاتب حسابات يمسد العمليات والأرقام .. وامتلأت مقاعد للتهمين بمن صدرت فيهم الأحكام .. وجلس فريق منهم جامدين وكأنما استنفدوا طاقتهم من التألم فلم يبق فيهم مزيد لألم جديد . وراح آخرون يكون ويتجنبون متخافين .. وكان فريق غير هؤلاء . وهؤلاء يرتعدون ، قد أخذتهم الرجفة فكأنهم أوراق تعبت بها الرياح الموح . ومنهم من فقد صوابه فراح يطوح ذراعيه فى الهواء محركا عضلات وجهه للجمهور للتفرجين . . وجلس اللذين لم تصدر ضدهم الأحكام بعد يتقبلون على الجمر ، لأن أحكام الاعداء لا تكون إلا فى الختام . واستمر الراهب فى تلاوة الأحكام الرهيبة قائلا :

— هنريكيز جومان ! . قد نلظت بك الكنيسة وردتك إلى حظيرتها ... ستحرق حالا ..

وسرعان ما سرت فى الجماهير المحشدة موجة الحماس والانعمال .. فبعد بقى من المتهمين ثمانية ، ومعنى هذا أن المحرقة تنتظر بثانية منهم لاسنة كما كان المصوم . . . وإذن فهذا هو سبب وجود تلك القادير للتضاعفة من الخطب ! . وفى الحق أن الجلاد أخذ يعد (خوخ الآلام) ، وهى الأدوات التى توضع فى أفواه المحكوم عليهم بالحرق لكي تبطل صرخاتهم وهم يحترقون فلا تؤذى أسمع التفرجين الحساسة .

ثم توديت دوروثا وروميرو فى الختام ، فلم بدر بدرو أن كان ذلك مصادفة أم عمداً ، ولكن لعل دى لورا قد أراد أن يختم المحاكمة بظاهرة من ظواهر الرحمة تؤكد

في الأذهان قداسة التي اشتهر بها .. ومهما يكن من شيء فإن الجمهور لن يعرف شيئاً عن المغامرة جنيته التي دفعت في هذا الصدد ..

وتولى حارسان حمل العجوز ، وألقيا بها على ركبتيها .. وأنشأ الراهب يسرد جرائعها .. فإذا هي اعترفت بمخالفة الشيطان والاستماع إلى (القداس الأسود) ، وكانت سبباً في وفاة أناس بأفعالها السحرية .. لكن لما كانت قد تابعت عن آثامها البشعة ، فقد قبلت الكنيسة توبتها وهي الرحيمة أبداً بالتائبين للذين .. ومن ثم كانت العقوبة هي الاكتفاء بحرقها حالا ..

لم يصدق بدرو سمعه ، وراح يحملق مشدوها في وجه الرئيس الجامد .. لاريب أنه سيتدخل في الأمر حتى في هذه اللحظة الأخيرة ، فهو قد تقبل الرشوة ، ووعد بالافراج عن العجوز .. بيد أن ملامح دي لورا ما برحت على جمودها ..

وفي مثل لمح البصر فطن بدرو إلى الخداع والتدليس .. ألم تخرج دوروتيا روميرو من السجن حقاً في اليوم المحدد ..؟ إن مثل دي لورا لللاعب بالألفاظ جدير أن يقول إنه بر بوعده ..

في هذه اللحظة ، وفي هذه اللحظة فقط ، تلاشى من نفس بدرو كل وهم بقي لديه ، وتكشفت له الحقيقة عارية سافرة ، بشعة في عريها وسفورها ..

لكن بدرو لم يكن لديه وقت للتأمل .. فإن العجوز لم تكذب تفهم معنى الحكم الذي صدر في حقها حتى أنشأت تنتحب ضارعة إلى المحكمة ألا يكون نسيبها المحرق ، فكفها ما لقيت حتى الآن من تعذيب .. وهي لا تطمع في البقاء على قيد الحياة ، وإنما تبتهل إلى صاحب القداسة أن يمنحها موتاً عاجلاً ..

فكان جواب دي لورا أن هز رأسه ضناً عليها بما تطمع فيه .. وفي هذه اللحظة تقدم جارسيا إلى الأمام يدفع الحارس الذي أمامه ، فلما استوى على المنصة خاطب رئيس محكمة التفتيش قائلاً :

— لي ملتئم يا صاحب القداسة ..

فرفع دي لورا حاجبيه قائلاً :

— ملتئم ؟ ما هو يا بني ؟

— أنا جوان جوميز في خدمة كابتن دي ليفا باشيليه .. وقد استأذنته في القدوم إلى جاني لهذه المناسبة ..

— حسناً ؟ ..

— إن هذه المرأة ، دوريتا روميرو ، قد تميت في وفاة زوجتي ايتز بالم .. وقد حرصنا على هذا الفعل عدو لنا .. وإني ألتبس أن أحظى بعملها إلى المحرقة ووضع (الخوذة) بين فكيف .. امنحنى هذا للتمس يا صاحب القداسة .. فإنه نذر نفرتة ..

كان صوت جارسيا العميق يتجاوب في أرجاء الليدان في هذا السكون المطبق .. وقد أشرأت الجماهير بأعناقها تطلعا إليه واستجلاء لهيأته .. فشمع بدرو بقلبه يكاد يلف وهو يشهد ما يدور ..

والم دي لورا قد ظاب له أن يشهد هذا البرهان الواضح على عدالة أحكامه .. والله كذلك قد أدرك نفسه الجماهير حين ألقاها تعطف على هذا الزوج الناكل .. وهكذا أوماً الاب دي لورا قائلاً :

— ليكن لك هذا يا جوان جوميز .. لكنني أوصيك أن تجتنب الحقد والكراهية وأن تقبلي قلبك من الضغينة .. إن المرأة قد تابعت عن آثامها ، وبموتها قد استعملت رضوان الكنيسة ..

ولم يكذب الاب دي لورا يتم كلامه حتى احتوى جارسيا العجوز الشثيلة بين ذراعيه وحملها كطفل رضيع إلى المحرقة .. ولما تبعه الجلاد لمساعدته بإدراجه جارسيا قائلاً :

— أرجع إلى مكانك يا أخي بالله .. لست في حاجة إلى مساعدة .. إن هذا جزء من نظري ..

ولم يستطع بدرو أن يصبر ما حدث بعد ذلك ، فقد كان جارسيا مولياً ظهره إلى ناحية .. بيد أن صراخ العجوز انقطع فجأة .. واشتد زهول الجماهير حين شاهدوها يلقون مفق جارسيا بذراعيها التحيلتين الواهيتين .. وصاح أحدهم يقول بين الجدل والمزل :

— أفطروا ! .. إن الساحرة قد نفثت فيه من سحرها ! .. احترسوا بهذا ! ..

وبلغ جارسيا المحرقة .. فتوقف برهة طويلة .. ثم انحنى قليلاً وكأنما يسوى حمله

فعل بيديه شيئاً لم يره بدرو .. فلما استقام كانت العجوز ممددة على أرض المحرقة جن
لا حراك بها وتقوست أصابعه الضخمة كمن كان يخنق ..

وجاء رفع جارسيا قبضتيه المطبقتين إلى ناحية هيئة المحكمة وصاح بصوت
قاصف كالرعد :

— الآن هي بخير يا أولاد الزنا !! .. الآن لكم أن تألوها وتتمكنوا منها !! ..
وانتهز جارسيا فرصة الدهول المطبق الذي حل بالجواهر ، قاندفع في غمارها كالنور
المناجج المخبون ، وجعل يشق طريقه بينها شقا .. وممع (بدرو) صياحاً وهرجاً وكأ
المناس من حوله بحر مائج متلاطم ... لكن جارسيا قد اختفى عن الأنظار ...

الفصل الثالث عشر

لم يسع (بدرو دى فارجاس) بعد ليلة الحافلة للماضي ، وبعد الفظائع التي شهدها
في ساحة المحكمة العلنية ، إلا أن يتنفس الصعداء أول الأمر لوجوده وحده في زنا
بسجن القلعة ...

وقد جلس مستمداً رأسه بين كفيه فوق فراش من القش المرطوب يحاول أن
يندود عن خياله ذكرى جارسيا ومشاهد التنفيذ في المحكوم عليهم التعساء التي اختبر
بها المحكمة الرهيبة ...

كانت الزنا مميكة الجدران ، بها منفذ منحدر كأنه شق لم يسمح إلا بمرور شعاع
واحد من الشمس أخذ يتضاءل كلما انحدرت الشمس إلى المقيب ... وكانت الزنا
طالعة بالرطوبة كربة الرائحة حافلة بالحشرات والموام ... ولما أفاق بدرو قليلاً
ذهوله كان مشهد فأر سمين وقف على قائميه في شعاع الشمس ، لفا في تذكيره بحقيقته
موقعه ... فعما قريب برخى الليل سدوله ، فنهب هذه الكائنات جميعاً من جحور
لكي تعمر الظلام وتسير فيه طليقة متحررة .. وإنما كان أروع من ذلك كله
ذلك السكون المطبق الخيم حواليه ، فلاحس ولا همس ، وإن كان يعلم أن هذه الزنا
أفضل من غيرها وهي فوق سطح الأرض تنفذ إليها بعض الضوء ، في حين أن غير
حالك الظلام آتاه الليل وأطراف النهار ...

ونفض بدرو يذرع فراغ الزنا العسير جيئة وذهاباً ... ترى أين أبوه وأمه

أخته ؟ . ومتى يمثل أمام المحكمة ؟ . وما هي التهمة التي توجه إليه ؟ . وكيف يحمّل
مطالب الاستجواب ؟ . إن الخوف من التعذيب لم يلبث أن ثقل عليه واشتدت وطأته
لكنه لكانه كابوس مروّع .. أم تراهم يتركونه حبيباً في سجنه حتى يهلك جوعاً وظمأً
لأنعدام الدليل على ادائته ؟ .

ثم انطوى شعاع الشمس وأمسّت الزنا في ظلام دامس .. ذلك وما برح يروح
ويجيء حتى يدركه الأعياء فينام وينسى إلى حين ما هو فيه من هذا البلاء ..

وعلى حين غرة سمع صرير مفتاح في قفل باب الزنا ، فكان له في أذنيه مثل
قاصف الرعد .. ثم انفتح الباب عتيقاً ، وبدأ في فراغه جمع من الرجال يسد أحدهم
صباح ...

وصاح به أحدهم وهو قصير عاري الذراعين يلبس سترة من جلد :

— آت يا هذا ! . هل أنت مستعد لمشاهدة الأولى ؟

وكان يحمل بين يديه سلاسل غليظة ما لبث أن قيد بها معصمي بدرو وساقيه
وهو يقول :

— ألك رغبة في الكلام ؟ أتريد أن تعترف بذنوبك ؟

وأمسك بذراع بدرو ، ودفع به إلى الرجال الواقفين في اللشى ، وكانوا مثله ،
فساراً ، غلاظاً ، حلقى الرؤوس ، منكروى السجن ، يبدون بسواعدهم العارية ذات
الشعر الكثيف وكأهم قصابون ، أو جلادون ، وهي طيعهم ..

ثم حفا به جنديان . وقاداه متعراً في اللشى ، وهبطا به نحو عشرين درجة ، وسار
للانهم في مبنى آخر تعددت فيه الأبواب وشاعت في جدرانها الرطوبة واحتبس هواؤه
إلى حد الاختناق . فلما بلغوا في نهايته بالافتوحا إلى المين نادى جندي كان يتولى الحراسة لدى
الباب — السجن بدرو فارجاس : فانبعث من الداخل صوت يقول : دعه يدخل وأتركنا وحدنا
وألقى بدرو نفسه في غرفة مستطيلة يضيئها الشموع .. بها منصة عالية كالتي يجلس
عليها القضاة وثلاثة مقاعد خاوية ، ومنضدة للكتابة .. ولم يكد بدرو يستقر في الغرفة
حتى استرعى نظره الابن إيسابو دى لورا واقفاً في وسطها في ردائه الكهنوتي الأبيض .
ومابث رئيس محكمة التفيتش أن جلس في مقعد ملاصق للجدار فاعلان :

(م - ٤ - فارس قطسله)

— فقال يا ولدى .. إن لى معك كلمة ..

ولما ألقى يدرو قد لزم مكانه مكبلاً بالأغلال راح ينظر إليه من رأسه إلى قدمه إلى قدميه وبعث بلحيته قائلاً :

— إنك تبدو متغيراً منذ الليلة القاتمة .. وقد خطر لى فى تلك المناسبة أننا سنلتقى بما قريب .. والحقيقة أن الخطيئة قد ظهرت آثارها عاجلاً ..

فقال يدرو وقد تلاشى من نفسه كل خوف وطمأنينة عليه فقد دققت وهو يرد نظراته دى لورا بثقلها :

— الخطيئة .. لعل قد أسسكم لا تعنون أتى قبلت رشوة أو أخلفت وعدا .. فإن تقديراً كهذا هو الظلم للبين ..

فقال رئيس محكمة التفتيش دون أن يخلع نظراته :

— احذ يا ولدى .. إن للفتنة عقاباً قد لا ترتضيه .. إننى لم أقبل رشوة ولم أخلف وعدا كما تعرض لى وقاحة واجترأ .. وكل ما هنالك أن الكنيسة قد تقبلت غرامة ثم أطلقت سراح السجينة دوريتا روميرو .. أما ما ينهب إليه خيالك الفاسد فلا قيمة له ولا اعتبار ..

وقد هم يدرو بالجواب ، لولا أن رفع الأب يده بصوت الأمر قائلاً :

— لست هنا فى معرض الوقوف على آرائك ، بل لتطهير نفسك التى تملكها الك واستوجبت عذاب جهنم .. ولنى يظهر هذه النفس الضالة من أرجاسها سوى التوا القلبية الخالصة ..

— وعلام هذه التوبة ؟

همز دى لورا رأسه قائلاً :

— يا لعناد الخطيئة والامعان فى الضلال .. لا بأس .. ستعرف وشيكاً أمام المحكمة المقدسة بأية هم أنت مدان .. فإن كنت تطمع فى الرحمة لشخصك ولأسرتك ، وإن كنت تريد إتهاد أرواحكم وأبدانكم جميعاً فهناك سبيل للعفو والغفران ما برح مهاداً فلتسلك هذا السبيل ، ولتبرهن لى على صدق توبتك ، أساعدك بكل ما فى طاقتى .. فإن لم تفعل ..

وهز الأب منكبيه هزة تعنى عن كل كلام .. فقال يدرو مردداً كلمته :

— سبيل ؟

— نعم .. أخبرنى عن مكان المجرم الهارب وقاتل أمه ، جوان روميرو ، الذى يتجمل لنفسه اسم جارسيا ..

— إنى لا أعرف قط أين هو ..

— كذبت ، كما كذبت على عنه منذ ثلاث ليال .. أكشف عن مكان وجوده .. فإن لم تفعل فالعاقبة وخيمة عليك وعلى أسرتك ..

— لا أستطيع أن أتكلم بما ليس لى به علم ..

فأمسك دى لورا بذراعى مقعده قائلاً :

— اصغ إلى .. إنك ارتكبت جرمين عظيمين .. أولهما أنك لم تبلغ عن مجرم هارب من العدالة .. وثانيهما أنك تواطأت معه ضد المجمع المقدس .. إنى لآخر مرة أسألك أين مكانه .. ؟

ولما طال بالأب انتظار الجواب ، نهض من مقعده وقصد إلى اللبشة وهو يغمغم مغضباً :

— إن يدرو دى فارجاس لا يريد أن يتكلم إذن .. إنه يستخف بالمجمع المقدس .. إن الابن من طينة الأب ..

— إن والدى لا يعلم شيئاً عن هذا ..

فقال دى لورا وهو يرفع جرساً فضياً فوق اللبشة : ستحاول أن تعرف الحقيقة .. ولما أقبل الجندى تلبية لندى الحرب قال له الأب :

— قل للرهبان البجلين أن وقت انعقاد المحكمة قد حان .. واستدع باقى أسرة دى فارجاس ..

ثم التفت إلى يدرو مستطرداً :

— إننا لا نقوم عادة باستجواب اللذين مجتمعين ، لكنى أظن أننا فى هذه القضية سنعرف الكثير من اعترافات اجتماعية مشتركة ..

وأزوى في مكانه وهو مثال القسوة والبطش . . ولما أقبل الراهبان جلس بينهما إلى منصة المحكمة ، وتولى راهب ثالث ترتيب أوراق مختلفة وضعها على المنصة ، ودنا أحد الحراس من بدرو فأوقفه أمام المنصة .

وانبعث من الخارج صوت مبهم هو مزيج من وقع أقدام متاثقة وصليل سلاسل . ثم افتتح الباب ، ونادى الجندي الحاجب :

— مسجونو المحكمة القدسة ! فرنسكو ، وماريا ، ومرسيدس دي فارجاس !

الفصل الرابع عشر

بدا فرنسكو دي فارجاس شاحبا متأثراً بفعل الساعات الأربع والعشرين التي قضاه في السجن ، وإن دلف مرفوع القامة أشم الأنف رغم الأغلال التي كبل بها . . وكانت زوجته دونا ماريا مثله في التأثر ، وما كادت ترى بدرو حتى امتلأت عيناه بالدمع ، وإن تكلفت الابتسام . . أما مرسيدس وهي التي لم تسكد تجاوز طور الطفولة فكان أثر السجن فيها بالغا ، إحتق إنها راحت تتعلق بأمها وكأنما تلمس عندها الحى والملاذ ، وكان من حسن حظهما إنهما لم تسكلا أيضا بالسلاسل والأغلال .

وقد حيا البدون فرنسكو ولده بلمهجة تمت عن عدم توقيره للمحكمة ، وجاوبه بدرو بالمثل وقد شجعه ما آنسه فيه من الجلد ، فصاح أحد الحراس يلزمه السكوت ، فأنهره الفارس العتيد قائلاً :

— أسكت أنت يا كلب . . لن أسمع لأحد كلاب السجن القنطرة أن تصدر إلى الأوامر ! . .

وهنا تدخل دي لورا ، فقال بلمهجة الصارمة :

— ليس هنا مكان العجرفة يا فرنسكو دي فارجاس . . إن كلمة على شك قد تملك ما لم تتعلم من دروس الشيخوخة . .

يبد أن دون فرنسكو جابهه قائلاً وقد زم شفثيه ازدراء :

— بل من الأصوب لك يا إيتاسيو دي لورا أن تفسر هذا العدوان على أسرتي وعلى شخصي ، لا أن تضيق وقتك وجهدك في تهديدات لا تخيف رجلاً مثلي ! . . إني أريد أن أعرف بأى حق تمتد إيديكم إلينا !

فلم يجب رئيس محكمة التفتيش وقد عز عليه الجواب إزاء هذه الجرأة التي لم يأنس مثلها . . . ولم يلبث أن أشار إلى كاتب الجلسة الجالس إلى المنصة ، فتولى هذا الراهب رادة بيان الاتهام . . .

وقد نص هذا الاتهام للطلوب على أن إحدى جدات فرنسكو دي فارجاس كان أغبرى في عروقتها الدم اليهودى ، وإذن فليس انتسابه إلى المسيحية خالصاً من شوائب وقد نجت هذه اللوثة في تعريضه بمحاكم التفتيش للقدسة وتنديده بالمقربين إليها . . . وهو قد بث هذه الآراء الجاحدة اللاحدية في نفوس أفراد أسرته إلى حد أن زوجته وابنته أظهرتا الارتجاج والاستفطاع لمجرد اسم (المجمع القدس) أمامهما . . هذا إلى أن والده قد تشبع بهذه المبادئ الثورية ، فارتكب جرائم لا يستهان بها . .

وانتقل الاتهام بعد ذلك إلى سرد التهم العزوة إلى بدرو دي فارجاس . . فإذا هو في التاسع والعشرين من شهر يونيو قد اعتدى بين الجبال على اثنين من أتباع محاكم التفتيش وأصابهما بإصابات بالغة وكان في خلال ذلك يسب محاكم التفتيش ويستزى بها . . . وفي نفس هذا اليوم ، وبحضور والده . . لم يتورع عن التطاول والاجترأ على واحد من كبار المقربين إلى المجمع القدس . . وفي نفس الليلة تواطأ مع قاتل هارب يدعى جوان روميرو أو جوان جارسيا بقصد مناوأة العدالة الكنائية واحباط مساعيها القويعة ، فنوسل بالخدعة إلى دخول بيت الأب للجل إيتاسيو دي لورا رئيس محكمة تفتيش جابن القدسة لغاية خيثة ، إن كان الأب البجل قد استطاع إفسادها عليه مؤقناً يظنونه وحذره ، فأنها قد آتت ثمارها الكريمة الويلة فما بعد . . وعند استدعاء بدرو دي فارجاس في الليلة التالية للإجابة عن هذه الكيافراووم الدعوة وأحدث إصابات متعددة في جنود المحكمة القدسة . .

واختتم الكاتب هذه الاتهامات مبيناً أنه قد أقسم على صحتها شهود عدل . .

وقال إيتاسيو دي لورا بعد أن خيم على القاعة صمت رهيب دام برهة :

— قد سمعتم الاتهام يا فرنسكو وبندرو وباماريا وبامرسيدس دي فرجاس . . ولا يبقى أمامكم الآن إلا أن تعترفوا بهذه الأثام وتلتمسوا غفران الكنيسة وصفحتها بالتوبة والدم . . والمحكمة الآن في انتظار اعترافاتكم . .

وسرعان ما تقدم فرنسكو خطوة إلى الأمام ، قائلاً :

— نعم .. إني أعترف .. أعترف بجرعة واحدة لم يرد لها ذكر في بيان الاتهام ، وإني لأعجب من اغفال ذكرها ، ولعل ذلك لصدورها وانطباقها على الحقيقة دون سائر ما قيل .. إني أعترف بجررتي الكبرى لرفض بيع ممتلكاتي خارج أسوار المدينة لـديجو دي سيلفا ..

كان لهذه الكلمات تأثيرها الصاعق في نفوس أعضاء المحكمة الثلاثة ، وقدرّاح قلم الراهب الكاتب بصراً مسموعاً ، وما لبث دي لورا أن قال له وقد أفاق من ذهوله :

— هل دونت هذه الأقوال أيها الأب امبروزيو ؟ ..

— نعم يا صاحب القداسة ..

— غنى عن البيان أن أقول أن مزاعم هذا السجين هي من لون التهم المسندة إليه فهو بينهم ، في حضورنا ، الجمع المقدس بالفساد والانحطاط .. فتدخل دون فرنسكو قائلاً :

— إن هذا الاتهام لم يأت بعد ، وهو يتوقف على مجريات الأمور .. أما الآن فاني أتهم دييجو دي سيلفا القرب اليكم بشهادة الضرور والافتراء ، بدوافع الطمع والندالة .. وليدحض هذا الاتهام إن استطاع ..

— إنه سيدحضه ..

والفتت الأب دي لورا إلى شخص كان واقفاً خلفه المتهمين ، قائلاً :

— إنك سمعت هذا القذف يا دييجو دي سيلفا .. فهل تتفضل فتعيد ذكر شهادتك ؟ وظهر دي سيلفا حيث وقف إلى جانب النصة فأنحى ناحية ثم راح يتنزه في السجون وفي عيذه نظرات التماهة والتشقي مستمرة كامة .. وقال دون فرنسكو على الأثر :

— عجباً ! .. ما أقبح هذه الرائحة التي هبت الآن علينا ..

يبد أن دي سيلفا لم يكثر بهذا التعريض السائر ، بل خاطب دي لورا قائلاً :

— إن قداسكم قد استمتعتم إلى شهادتي بعد أفواء الجين ، وهي واضحة مفصلة في قائمة الاتهام .. فالزوم تكرارها وإعادتها ؟ .. أما عن الدوافع التي بعثتني على الشهادة

إن قداسكم ولا ريب تصدقوني إذا قلت إني شهدت بدافع نصرة الدين والثود عن حياض الإيمان .. وليس مما يتفق مع كرامة التدين الصادق أن يدفع عن نفسه اختلاقات كهل مدان ..

فأوماً رئيس محكمة التفتيش مؤمناً ، بينما ضحك دون فرنسكو تهكماً واستهزاءً .. فقال له (دي لورا) وهو ينظر إليه نظرة مستطيرة :

— إني أسألك لآخر مرة إذا كنت تنوي الاعتراف بالآثام المسندة إليك ...

— أعترف بأن دي قد خالطته اليهودية ؟ .. إلا أن دي في ثقائه شبيه بدم الملك ، وهو أبق من دمك أضعافاً مضاعفة ، وهذه حقيقة معروفة لسكافة النبلاء في أسبانيا .. أعترف بالآثام ؟ .. بالله من كذب مقصوح وافتراء باطل ! .. أعترف بأنّي علمت أسرتي التناول على الدين ؟ .. نعم وحديث خرافة ! .. أما عن ولدي فانه يستطيع الكلام عن نفسه ، وإن كنت لا أصدق حرفاً مما نسب إليه .. وإني أطلب إليكم أن تفرجوا عنا ..

— فكان جواب (دي لورا) أن أشار إلى مرسبوس قائلاً :

— ابدأوا بالبنت ... من أفواء الأطفال ضمن الوقوف على الحقيقة ...

وسرعان ما تعلقت مرسبوس بأمرها وقد تملكها أشد الرعب والفرع ... فأمسك أحد الجلادين الغلاظ بذراعي الأم ، وتولى آخر دفع الفتاة حتى أوقفها أمام رئيس المحكمة ، بينما راحت الأم تهتف به :

— كلا يا صاحب القداسة .. الرحمة يا صاحب القداسة .. خذني بدلا منها ..

إنها صغيرة ! .. إنها بريئة ! ..

فاتهرها دون فرنسكو قائلاً ، وإن كان وجهه ممتعماً :

— الزمى الهدوء ! .. اتخمين أن يشمت بنا هؤلاء الكلاب ؟ ..

وحاول بدرو أن يتقدم ، بيد أن أحد الحراس أمسك به ...

ووقف دييجو دي سيلفا يتسم ... وأنشأ الأب دي لورا يقول للفتاة المنكودة :

— يا مرسبوس دي فارغاس ! .. هل تعترفين بأن أباك قد استطاع بتوجيهاته

الفاصلة أن ...

وكتب الأب دى لورا عن إتمام كلامه حين ألقى الفتاة هائمة بين يدي الجلاد، فقال بصوته القاسى :

— شدوها إلى الدولاب ... بإمكانك أن تنقذ فتاتك يا فرنسكو دى فارجاس يا اخترت الاعتراف ... فإن لم تفعل كانت التبعة على رأسك ...

فسمع بدرو أباه يقول وقد خيل إليه من هول ما يدور أن صوته صادر من مكان سحيق :

— إني لن أشفها بالكذب يا (إنياسيو دى لورا) ... فإن فعلت فعلتك فلن الله عليك ! ...

وشدت البنت النعسة إلى الجبال وهي تصرخ مستجيبة وتقاوم متخاذلة ... لما أن أدير الدولاب وجذبت الجبال عضلاتها تكاد تنفجرها حتى بدت منها صرخة تفتش الأكباد ... فقال رئيس المحكمة غير عالى بحالتها المؤسفة ولا يبكاء الأم وامتناع الأب وفزع الابن :

— هل تعترفين إنك بهذا تنقذين نفسك من الآلام ...

فلم يجبه غير الصمت والسكون ...

وهنا قال أحد الجلادين متلعنا :

— لقد اغمى عليها يا صاحب القداسة ...

— ردوا إليها الوعى ... هذا عملكم ...

فأرخت الجبال ، ومدت جسد البنت النحيلة على الأرض .. وأحاط بها الجلادون الزبانية يسكبون عليها بالماء .. ثم لبث كبيرهم أن وقف بين يدي دى لورا قائلا :

— إنها ماتت يا صاحب القداسة لأول جذبة من الجبال ..

فبدت من الأم صرخة محتمة ..

وقال دى لورا بمحبة :

— ماتت ... بالك من أغبياء ... أمالك من حذق في مهنتكم :

— إن شيئا كهذا لم يحدث من قبل ...

وانبث صوت دون فرنسكو يقول في نبرات غريبة لم يكده يعرفها بدرو :

— الآن قد تجلت رحمة الله ! وعليكم جميعا لمته

فانفجر دى لورا قائلا :

— احموا الجنة .. سنتولى الآخرين !

يبد أن عضوى المحكمة مالا نحوه ، وبعد خمس تداول قال دى لورا :

ربما .. قد لا تنظر بشيء في هذه اللحظة .. أعيدوهم كل واحد إلى زنازته .. غدا

مساء سيأتى دورك يادونا ماريا ، ثم دور ولدك .. ففكرى جيدا حتى ذلك الحين

ثم نفرس في وجه الأب قائلا :

— أما أنت فسيكون دورك آخرهم

الفصل الخامس عشر

الزوى بدرو في زنازته المظلمة وهو من تفكيره المضطرب في جحيم مقيم كانت عيناه تلتهمان النبال .. ولو استطاع البكاء لسرى عنه واستشعر بعض الراحة اسكن موت مرسيدس ، والعذيب الذى يستهدف له وأبواه ، كانا أجل من أن تجدى فيهما التمسوخ ، ويخفف من بلاهما البكاء

ثم خيل إليه وهو في شبه كابوس ثقيل من أفسكاره المحمومة أنه لم يعد وحده في الزنازته .. فقد لاح له ضوء منبعث من مصباح ، يتخلله هيكل رجل ضخم الجنة مالبت أن أغلق باب الزنازته .. وقد وقف الهيكل برهة جامدا موليا ظهره إلى ناحيته .. ثم وضع للصباح على الأرض مع أشياء أخرى واستدار في مكانه .. ثم راح يدنو ويبدأ من فراش بدرو ، وانبث صوته قائلا :

— هل أنت مستيقظ ؟

لم يكن ما يراه إذن كابوسا ولا رؤيا .. وقد جلس صاحب الهيكل الضخم على حافة الفراش إلى جانب بدرو قائلا :

— أم تعرفين أيها الرفيق ؟

فنهت بدرو بصوت كالفحيح :

— جوان جاريسا !

— ومن يكون غيره ؟ هل ظننت أنى أتركك في هذا الجحيم دون مساعدة ؟

— جوان جارسيا كيف ؟

فأجاب جارسيا وهو يوميء بإيماءة بليغة :

— هو المال .. المال هو مفتاح كافة الأفعال .. ثم هناك (مانويل بيريز) .. فإنه ما كان يستطيع مواجهة أخته إذ لم يفعل كل ما في إمكانه .. وأؤكد لك أنها ذهبت تمرك كل ساكن وتقوم بكافة الساعى .. لكن قبل كل شيء ، أريد صفحك عني .. فاني حين ساءت الأمور بالنسبة لأبي .. أم لعلك لاتعرف ؟

— بل أعرف ..

— لقد أسأت بك الظن وتوهمت أنك أخذت المبلغ وغدرت بي .. لعلك ترى آني كنت في موقعي أقرب إلى المجانين .. ثم علمت ما حدث لك ، فصححت أفسارى العاسدة من ناحيتك .. إني أتمنى صفحك ..

فراح يدرو يهون عليه ويسرى عنه ، وشرح مارآه في ميدان الكاندرائية من فطائح الخاكة العلية ، وأردف :

— إن صاحب القداسة قد خدعنا جميعا ..

فقال جارسيا وهو يفتح ويضم قبضتيه :

— ربما جاء يوم صفيت فيه الحساب .. أنت تعرف لماذا قتلت أبي ؟ .. لاشك أنك تفهم وتقدر ..

— نعم ...

فقال جارسيا :

— إنها ياركتني قبل أن

ومر يده أمام عيني .. ومالبت أن فتش في جيبه وأخرج منه مقناحا فتح به قيود يدرو قائلا :

— دع القيود في مكانها في الظاهر ، فقد يحىء إلى هنا آخرون ..

— ثم سار إلى ناحية الباب ، وغاد حاملا لقافة من الخيش أسفلها قائلا :

— هذا سيف وخنجر .. إنا سنحاول الخروج من السجن قبيل موعد المحكمة ،

وسعمل مانويل بيريز على إخراجنا من باب السجن الخلفي .. والفرصة أمامنا ضئيلة .. لكننا سنبتذل ما في وسعنا ..

فقال يدرو وقلبه يدق عثفا :

— وأبي وأبي ؟

— سيحيثان معنا أيضا .. وهنا اللعنة حقا .. فاني كنت أعلم أنك لن تحرك خطوة دونهما .. إني قالت دون فرانسيسكو .. وسنقصد عقب خروجنا من هنا إلى الجبال ، ثم إلى ميناء (المرية) ، ثم إلى إيطاليا .. وقد قال والدك إننا إذا استطعنا الوصول إلى إيطاليا فسندعو في أمان ، تحت رعاية أقارب والدتك .. ثم إن هرنان سول لمهد بأنام هذه المهمة .. لكنني مع ذلك لا أغلط نفسي ، فهي مهمة شاقة عسوفة بالمخاطر ، وفرصة النجاح فيها ضئيلة ..

— تقول هرنان سول ؟

— نعم .. هو من عشاق كاتانا .. وهذا العمل من تدبيرها ..

ووقف جارسيا يرهة يرهف السمع ، ثم أردف بلهجة القلق :

— سأذهب الآن .. إن السجنان من أصحاب مانويل بيريز ، وقد قبض أجره .. لكن التقود لم تكف لاعطاء الجميع ها .. وقد تساورهم الظنون في الزميل الجديد الذي انضم الى زميرتهم ..

— وكيف تفلح في خداعهم ؟

— قد لا أفلح .. لكن حراس السجن لا يبحثون عن جوان جارسيا بينهم ..

كما أتي أتبع إرشاد مانويل وألتزم السكان الذي يعينه لي ..

— لكن إذا عرفوا أمرك ؟

فتناول جارسيا الصباح وقل وهو يهز منكبيه :

— الوداع إذن .. إنهم لن يأخذوني حيا .. فان معي خنجرا ..

فقال يدرو :

— شكرا لك .. إني عاجز عن ..

فقال جارسيا :

— لا لزوم لهذا الكلام .. فاني لى أنسى ما فعلت من أجلى ، ولا ما تعرضت له في هذا الصدد .. إننا سنبتقي معا ، هنا أو في أى مكان آخر .. إلى اللقاء ..
وخرج جارسيا تاركا بدرو في الزنزانة يتأمل مشدوها في شعاع الشمس الذى كان ينبعث من فجوة الجدار ..

لقد تبدلت حال بدرو من اليأس المطلق والقنوط البالغ إلى الأمل الغلاب والرجاء المبسط .. فقد انتقل فجأة من ظلمات العدم والإهلاك إلى وضوح الوجود وحرارة الحياة .. وقد نبئت مع هذه المشاعر شعور آخر عميق دافق ، هو شعور الصداقة والاحساس بالاخلاص والتفاني بين رجل ورجل .. وانفذ بزغت هذه الصداقة الطاعرة في غياهب السجن ، ولكن المستقبل كفيل بأن يجعل منها شمعة مباركة تضيء سبل الحياة وتضيئ على الوجود بهجة ونعما ..

وتعاقبت الساعات بطيئة مثاقلة .. وانحسر شعاع الشمس .. وحل الظلام والليل .. وسرعان ما وثب بدرو من مكانه ، فززع القيود والسلاسل عنه ، وعلق السبف إلى منكبته وشد الخنجر إلى وسطه ، ثم عاد إلى فراشه فتعدد فيه من جديد وقد وضع السلاسل والقيود فوقه بحيث يحيل للناظر أنها طبيعية ..

وبينما هو مستسلم لأمواجهس يتقلب على مثل الحجر لفرط الخوف والاشفاق من حدوث ما يغفل بالحساب ، إذ سمع صرير الفتاح في القفل ، ثم رأى الباب يفتح ، فحمد الله ، ولكن سرعان ما جمدت الكلمات على لسانه .

لم يكن القادم هيكل جارسيا الضخم ، بل هيكل آخر نحيل لاحت معاله في ضوء الصباح الذى حملة في المعشى شخص آخر خلفه ..
وقد عرف فيه بدرو شخص ديجول دى سليما .



قال دى سيلفا مخاطباً الحارس :

— دع الصباح باهذا ، وأغلق الباب وانتظر في الخارج .. إني بعد أن تكلمت مع الديك الشائخ سأتكلم مع الفرع !
فقال السجنان :

— سمعا يا صاحب السيادة .. هناك نصف ساعة على موعد اجتماع المحكمة ..
سأنتظر يا صاحب السيادة ...

لقد فشل جارسيا ما في هذا أدنى شك !
وكذلك أطبق اليأس على نفس بدرو ، ولكنه اقترن هذه المرة بمحدد دفين ما لبث أن استحال إلى سعادة لا حد لها .. فان دى سيلفا والله ان يخادر هذه الزنزانة حيا !
وكان دى سيلفا يتفرس في وجه السجن العباس الذى يتوجه الشعر البرونزى وتبرق فيه العينان الخضروان الواسعتان ، فلما لبث أن ضحك قائلاً :

— أنت حاقد ولا شك ؟ لا بأس ياسيد بدرو ، فان هذا لن يدوم طويلا ..
أعدك إننا لن ننتهى حتى تستحيل نظرتك إلى شيء آخر .. هل رأيت الكلب إذا ضربته بأسوط ، كيف يتذلل ويتمسكن ؟ ..

لم يستعجل بدرو العمل .. فقد كان في هذا الموقف كمن يدخر لذة القتل وتحقيق الانتقام إلى اللحظة القصوى ، زيادة في المتاع ، وامعانا في للسرة والبهجة .
واستطرد دى سيلفا يقول :

— ربما عجبت من سر اهتامى بأسرة دى فارجاس .. والواقع أنهم اناس لاخطر لهم ولا قيمة ، ولا يستحقون أدنى اهتمام .. لكنى مع ذلك مفسر لك .. فان لى سياسة مرسومة بنيتها على أن أتخلص من كل من يعترض طريقي ، وكل من يفاضبنى ، مهما يكن تافه الشأن .. والواقع إني لأستنى من هذا أحداً .. فاذا جاء شاب ماجن رفيع مثل بدرو دى فارجاس ، واعتدى على أحد خدعى بالضرب ، كان عليه أن يدفع الثمن .
وإذا سعي عجوز مخرف متعجرف مثل فرنسكو دى فارجاس إلى منعى من استكمال رفعة يمتلكانى رغم العطاءات الجزيلة والعروض السخية ، فلا بد من القضاء عليه والتخلص منه .. والنتيجة أن ديجو دى سيلفا لا يدع لكائن من كان أن يستهين به .
وكذلك لا يلبث الناس ذوو المسكاة والشأن أن يغسحوا له الطريق ويغلقوا الميدان ... وبعد ذلك يبقى طريقه في الحياة ممهداً سهلاً لا يكدره مكدر .. هذا تفسير اهتامى بكم ياسيد بدرو ...

فقلقى بدرو هذا البيان البليغ بابتسامة أدهشت غريمه ، قائلاً :

— إذا كنت تتخلص ممن يعترضون طريقك ، فلتحرص على ألا يصيبك في هذا السبيل مكروه ، لأن هذا أحسن وأقرب إلى السداد . . حدثني بمزيد عن سياستك وأساليبك . .

لم يكن هذا هو ما يتوقعه دى سيلفا ، والواقع أن هدوء بدرو وابتسامته قد نال منه ، بيد أنه مضى في سخطه قائلاً :

— إن كنت تقصد أنى لا أمنح للفرورين الحق في اللذة المبارزة وشقاء القليل ، فأنت على صواب . . وعلام أقول بأشئ ؟ إن غايى حتى التخلص منهم في بساطة تحذيراً لتغيرهم . ولعلك تفهم في النهاية رغم عياوتك أن أسلوبى تام في دقته وأحكامه . .

فأوما بدرو قائلاً :

— هو ذاك . . إنى أعترف أن أسلوبك تام ولا يشابهه في تمامه إلا عام اندام شرفك . .

لكن دى سيلفا لم يستطع أن يكظم حنقه ، فقال وهو يتكلف الضحك :

— لا بأس يا فتى . . إن الفتيان السقياء يحب أن يتعلموا درساً في الأدب . . قم قاندياً واحتراماً حينما يخاطبك أحد الأشراف . . إنك تتقى أشد من القرباء الأكبر ، أياك الأعير . .

قال دى سيلفا هذا وهو يعد يده إلى قيود بدرو وينهشه ، وسرعان ما ارتد إلى الوراء والقيود في يديه . . وفي نفس اللحظة وثب بدرو من مرقده وأنشأ أصابعه في عنق غريمه الأله . .

وترجع الاثنان على جدار الززانة ودى سيلفا يحاول التخلص من قبضة مهاجمه على عنقه ، وقد استطاع بقوة البدنية أن يفلت بحركة عنيفة ، بيد أن دى فارجاس وقف بينه وبين الباب ، فلما حاول الوثوب إليه رده بدرو وهو يجرد سيفه وخنجره . .

وصاح دى سيلفا يستجد بالحارس خارج الززانة . . وكان ذلك أخشى ما يخشاه بدرو . . لكن ما من حبيب . . ولعل البطش قد راح يتعشى . . فهناك إذن فرصة للعمل . .

وكرر دى سيلفا استغاثته . . والتحم السيوفان وقال بدرو ساخراً :

— ما رأيك الآن في شفاء القليل أيها القاجر ؟ . أين سياستك وأين أساليبك ؟ . وراح بدرو يعمل بتؤدة ولكن في إحكام رهيب رغم براعة خصمه في المبارزة فأصابه في يده حتى سقط سيفه ولما تراجع دى سيلفا إلى ركن الززانة متكشاً ركل بدرو سيفه بقدمه وشرع يتقدم نحو غريمه في هوادة . .

هناك تلك دى سيلفا رعب لم يشعر بمثله طول حياته ، فشقق قائلاً وعيناه مسمرتان في طرف السيف :

— ناشدتك الله . .

فتك بدرو بطرف سيفه في قلنسوة فريته للرمسة ، قائلاً :

— إكشف رأسك أمام جلال اللوت أيها السيد . .

فصرخ دى سيلفا وراحت الكلمات تتدافع من فيه ، قائلاً :

— كلا . . لن ترضى يادى فارجاس بقتل رجل أعزل . . إن تقتلنى هكذا . .

إنى كنت أمزح . . إنك ستخرج دون عاكمة . .

فرد بدرو قائلاً :

— أمامك لحظة واحدة . . فكر فيها في البنت التى قتلتموها بالأمس . .

لجأ دى سيلفا على ركبتيه قائلاً :

— الرحمة ! . .

فقال بدرو وقد خفض طرف السيف كأنما يتردد ويتدبر :

— لا بأس . . إذا تمذلت وعسكنت . .

فقال دى سيلفا دون تورع ولا خجل :

— إنى أذنبت وآمنت . .

— لعلك تصلح ما فات ؟ . هل تضمن لنا الخروج من السجن ؟ هل تدفع

لموينا مناسيا ؟ . هل تعتذر علينا ؟ . .

— نعم . . نعم . . أقبل كل شيء . .

— وهل يمكن أن أتق بك ؟ .

— الله على ما أقول شهيد . .

— لا تذكر اسم الله !.. إني أصدقك إذا كفرت ... اكفر يادى سيلفا !..
أنت من حماة الدين المقربين إلى المجمع المقدس ومن أعضاء أسرة الكنيسة .. فاكفر
وأنت كذلك ...

ودنا منه طرف السيف ... فقال :

— إني ... إني أكفر ! ...

فسرعان ما أعمد بدرو السيف في صدر هذا الكافر الزنديق الآثم ، حتى نفضت
طرفه من ظهره ولمس الأرض ، وقال بدرو :

— الآن حقت عليك اللعنة إلى يوم القيامة ، ولتصل نار جهنم يا حامي

حامي الدين !..

وجذب سيفه ، وجعل يحملق في وجه غريمه الذي استحال إلى جثة هامدة ...

ثم انفتح الباب .. ألا فليجيئوا الآن .. انه أهل لمواجهة ..

وأطبقت يده على مقبض خنجره ..

لكن القادم كان جارسيا .. الذي قال له :

— أسرع !.. ليس أمامنا أكثر من دقيقة .. هناك شخص اعترضنى ..

— الحارس ؟ ..

— إنه إن يضايقنا بعد الآن .. لا هو ولا غيره ..

ولما وقع نظره على الجثة الممددة أردف قائلاً :

— حسنا فعلت ..

الفصل السادس عشر

سارع مانويل بيريز باخراج بدرو وأبويه من باب السجن الخلفى المشرف على سفح
التل الذى تقوم فوقه القلعة .. ولم يكذب يلقى الباب حتى ألقى المفتاح بعيداً بعد أن قرر
الانسحاب نهائياً من خدمة السجن إيثاراً للسلامة .. وعاون مانويل مع جارسيا على
حمل دون ماريا فى هبوط سفح التل ، بينما تولى بدرو معاونة أبيه للصاب بمخرج مزخرف
فى ركبته من أثر اشتباكه فى حروبه الماضية ..

وكان ينتظرهم فى أسفل السفح رجالان مع جياد .. وما معهم أن استقلوها حتى

وهدهدت أضواء كثيرة تنبثق من منافذ القلعة على صورة غير عادية هى دليل المخرج
والاضطراب ، وسرعان ما شق حجاب السكون صوت بوق صدر ناحية مدخل القلعة
للدلالة على اكتشاف هروب السجونيين وبدء المطاردة ..

ومضت بهم الجياد سراط فى المغاور الجبلية إلى حانة روزايو دون أن يلحق بهم
أحد ، فما كادوا يبتعدون حتى كان فى انتظارهم كوكبة من الفرسان على رأسهم هرنان
سولر الذى تقدم للحفاوة بأكل دى فرجاس وأنشأ ورجاله يمدونهم بما هم فى حاجة اليه
من الدروع والأسلحة ..

وبينما كان بدرو منهمكا فى تثبيت درعه إذ دنت منه كاتانا تساعده ، فقال لها :

— كيف أستطيع أن أعبر لك عن شكرى لكل ما فعلت من أجلى ؟

فقال بصوت خافت وهى تشد أربطة الدرع :

— الزم الهدوء ، ولا تدعهم يشعرون بأننا نتحدث .. عدنى بشيء أريده منك ..

— نعم .. لكن ماذا يهمنى إذا استمع اليها أحد ؟ إن واجب أن أذيع بين الناس

مبلغ دينى لك .. فعلام السكوت ؟

— لأننى فتاة سولر منذ الآن .. وقد تملكه القيرة .. وأنا أريده أن يجناز بهم

الجمال ..

فقال بدرو متصلياً :

— كاتانا .. لملك .. لملك لم تشتري هذه المساعدة من سولر بشئ هو ..

— لا طبعاً .. لكن ألم أخبرك فى الليلة الفائتة عن العلاقة بين هرنان سولر وبينى ؟

إنى حبيته .. عدنى بشئ واحد ..

— أعدك بأى شئ تريد .. ما هو ؟

— أريد أن تفكر فى أينما تكون ..

— لا حاجة إلى هذا السؤال ..

فقال وهى تمسك بأغراف الدرع :

— اليك قصدى واضحاً .. إننا قد لا نلتقى بعد الآن .. وستغدو أنت فارساً

(٢ - ٥ - فارس قسطله)

مشهورا بينا أشق أنا بصفى عشيقه لى الجبال فى (جاين) لكنى أود أن تذكرنى لحظة كل يوم وقت الصلاة .. فهل تفعل ؟

— أفسم أنى سأفعل ما تطلبين ..

— وسأفكر فىك بدورى ..

وبمسم سولر شطرها ، فتظاهرت بالفراغ لنوها من مهمتها ، فقبلها سولر قبلة لاستحواذ والملك ، قائلاً لها :

— قابلىنى بعد يوم أو نحوه فى المكان للعلوم .. إلى اللقاء !

وانحنى أمامها بدرو بأنم احترام قائلاً :

— فى رعاية الله يا كاتانا ..

فردت عليه قائلة :

— وفى رعايته أنت دائماً ..

وسار موكبهم فوق الجبال وقد ناهز جمعهم أربعة عشر راكباً .. فوقفت كاتانا فى وسط الطريق تشيعهم بنظرها وهم يبتعدون فى ضوء القمر وهى تدعو الله أن يودعهم بدرو بالثقاتة أخيرة .. فلما استدار عند منعطف الطريق ولوح لها بساعده ردت بحية من قلب يكاد يتصدع .. لكن سرعان ما انتفضت حين طرق سمعها وقع حوافر جياد آتية من طريق جاين ..

الفصل السابع عشر

لم يكن بد أمام الهاربين من الوقوف برهة للتشاور حين انتهت اليهم أصوات المطاردين .. فاستقر الرأى على أن يتقسموا قسمين .. قسم مؤلف من دون فرنسكو وزوجته وهرنان سولر مع نصف رجاله ، وهؤلاء يواصلون السير فى الطريق المعروف إلى ساحل البحر .. والقسم الآخر قوامه بدرو وجارسيا وبقى الرجال ، وكان عليهم أن يتخلفوا فى السير حتى يراهم المطاردون ، فإذا جدوا فى أمرهم انحرفوا إلى الغرب فى طريق ضيق بين الجبال ، فبتبعهم المطاردون وهم يحسبون أنهم جميعاً أمامهم ، وإذا لم يكون أبداً من الالتحام بهم فذلك أخف الضررين واكفل سلامة دونا ماريا وزوجها

ولما كانوا على أهبة القراق ، انتحى دون فرنسكو بولده بدرو ناحية وراح يقول له :

— لا لزوم لازعاج والدتك بتبادل الوداع .. سأقول لها أنك ستلتحق بنا فيما بعد . أما أنا فلا فلا أدري إن كان سيكتب لنا التلاقى بعد الآن .. وإذا استطعنا بلوغ الساحل فليس لنا أن ننتظر .. وعليك أن تسلك الطريق وحدك إلى إيطاليا .. ومهما يصننا فلان قريبك الكاردينال ستروزي سيرعاك ويسهر على سلامتك .. وكان بودى أن يكون معكم فى المعركة الوشكة .. لولا أمك .. هاهم قادمون .. إلى اللقاء يا ولدى

وتصافح الأب والابن بحرارة ، واستدار دون فرنسكو بمجواده ولحق بالفريق المؤازر من زوجته وهرنان وحراسهم ، بينما تغلب عنهم بدرو وجارسيا وخمسة آخرون وقد ترامت إلى أسمعهم أصوات المطاردين صاعدة من بطن الوادى

وكان بدرو وأصحابه فى موقف دفاعى منيع فى ظل صخرة ضخمة على جانب الطريق لما كادت تبدو طلائع لمطاردين وهم ثلاثة من الفرسان حتى فاجأهم بدرو بهجوم مباغت أوقع اثنين منهم على الأرض ، واصطدم بهؤلاء من جاء خلفهم ، فاختلط الحابل بالنابل ، وانهمز بدرو ورفاقه الفرصة ، فسارعوا بالهرب سالكين الطريق الجبلى الضيق بين أشجار الصنوبر ، فلم يتردد المطاردون فى اللحاق بهم دون أن يفكروا فى أن فريقاً آخر من الهاربين تدمضوا فى الطريق الرئيسى المهد ، وهكذا أدلجت الحطة ، وأمن والدها بدرو شر المطاردة ..

وبما بدرو بحمد الله على هذا إذ برز فجأة أحد المطاردين من بين أشجار الصنوبر واصطدم جواده صدمة عنيفة بمجواد بدرو ، فسقط الزاكبان والجوادان على الأرض متخبطين متشابكين

ثم تعافيت الأحداث بعد ذلك مختلطة مفاجئة لأول لها يعرف ولا آخر لها يوسف طاردا بدرو يضرب بسيفه فى كل موضع يساديه من أعدائه الذين اختلطوا برجاله اختلاطاً رهيباً ، وإذا هو يقفز فوق جواد حال صادمه عن كسب منه ويلتحم أينا صادفه الالتحام وإذا صريرة ألحمة تصيب الجواد فتدعه فيدمع براكبته فى منفع التسل الرأسى المتحدر أدهما جنوباً جعل بدرو يرتطم بالأشجار والصخور والأحجار حتى ليسدور رأسه

ويكاد يفقد صوابه ويوقن أن نهايته قد حانت ، فلا يكاد يبلغ نهاية السقطة في جحر الوادي الصخري حتى يراه ممدداً على الأرض في شبه غيبوبة والجواري على قيد أمتار جثة هامدة ..

إنما شاءت العناية الالهية أن ينجو بدرو من الموت بعجزة ، إلا من جرح أصيب به في كنفه .. وبينما هو يدير البصر في أرجاء الوادي الصخري القفر إذ وف نظره على هيكल فارس ضخم فوق جواد بدا هزيلاً بالتباس إلى ضخمة الراكب وقد يدنو من ناحيته ، فحسبه بدرو أول الأمر أحد المطاردين ، فلما حلق النظر إليه إلى هو جارسيا دون سواء ..

ولا تسل عن شدة فرح الصديقين بهذا اللقاء الذي لم يكن في الحسبان .. وقال جارسيا بصوته الرنان المدوي بعد العناق :

— إنى لم أكن أحلم قط برؤيتك ، وخصوصاً في مثل هذا المكان الجهنمي .. هل أصبت بسوء ..

— هو جرح بسيط .. ماذا حدث للآخرين ؟ إنى أراك تبعثى بجوادك .. فمز جارسيا رأسه قائلاً :

— كلا .. ولكن وجدت للمركة قد انتقلت إلى قتال شخصي ، كل إنسان يحاج للنجاة بحاله .. وقد تفرق رجال سولر في كل مكان بين الجبال وهم بها خيرون .. ولما رأيته تنحدر بجوادك فوق السفح حسبك فطعت هذا عامداً ، ولم أحسد به من مقابلتك ...

— والجند للطاردون .. كيف تخلصت منهم ؟
— لعلمهم حسبوني واحداً منهم أطارده .. ولعلمهم كرهوا أن تدق أعناقهم إذ أخذوا في مطاردتك إلى أسفل للنحدر السحيق .. وربما شغلهم تعقب رجال سولر أو حسبوا أن والاك لا يبعد عنهم كثيراً في امتداد الطريق ، ففصلوا أن يتابعوه .. ومهما يكن من شيء ، فما نحن الآن معاً ..

ولاحظ بدرو أن جارسيا أصيب بجرح هو الآخر ، ولما أعرب عن اشتغافه قال جارسيا

— نعم جرحت ، فاني خلقت للبحر ، لا للسراج .. إن جروحي مستديرة في حجم الجنيه .. ألا ليها كانت جنيمات في جيبى .. فقال بدرو وقد وخره ضميره :

— سحقاً لنا .. إننا جردناك من كل ما تملك .. فقد وزعت مالك بين السجان سوار وتكاليف رحلة أبى ..

— دعك من هذا الكلام .. سمع قرصاً إن شئت .. لكن سواء كان قرصاً أو لم يكن قال سعيد أن أنفق مالى كله في سبيل تصفية جزء من حسابي مع الشيطان دى لورا .. إنك أحسن منى حظاً يا صديقي .. فقد غادرت جابن بعد أن صفيت بعض حسابك .. أما أنا فلم أستوف حسابي بعد ، وسوف أستوفيه والله ..

وأخذنا يتشاوران بعد ذلك في موقفهما .. فاستقر رأيهما على أن يعملوا وجهتهما مدينة قانس حيث يسترد جارسيا مبلغ الثمانية جنيه التي أودعته في مصرفها ، ثم ركبنا البحر إلى إيطاليا من ميناء سانلوكار .. وقال جارسيا في هذا اللقاء :

— إنسان نجد أفضل من ميناء سانلوكار للاختباء عن أنظار الحكومة بين أهلها .. فقد على بطك يا بنى ، واصبر على الجوع هذه الليلة .. إننا سنقام في النهار ، ونسير في الليل ونسرق لنا كل إذا لم يكن من السرقه يد .. إنها وجهة بعيدة إلى سانلوكار ، ولكن لا بد لنا من بلوغها ..

الفصل الثامن عشر

للركيز دى (كارغال) رجل مسلم مطواع ، يؤثر الاستمساك بأسباب القانون والنظام ، وينحاز إلى جانب السلطان والقوة .. فكان طبيعياً ، وهذه عقيدته ، أن يستكر تجرد (دى فارجاس) وأسرتة على سلطان (المجمع القدس) ، بدل أن يتقبل أحكامه في استسلام للتدين الصالح ..

وأنت تراه وقد جلس الى مائدة الغداء مع فتاته (لوزيا) ومريبتها (انطونيا) غبرها بما كان في هذا اللقام ويوجه شعورها الوجهة التي يريد بها ، وقد اختتم قصته قائلاً : — هناك ناحية واحدة سارة في هذه السأفة ، وهى أن (ديجو دى سيلفا) قد

ينجو من غدر ذلك الفتى الشرير . فان السيف الذى اغمده فى صدره قد اصطدم بأحد الأضلاع ولم يصل إلى القلب .. وهو طبعاً فى حالة خطرة ، لكن الأطباء لم يأسوا من شفائه ...

فصغمت لورزا متجلمة رغم شعورها بقرب الانهاء :

— تقول النذر ؟ أى غدر هو ؟

— هو شرأوان النذر .. فان دى سيلفا خادم المجمع للقدس الوفى ذهب إلى زوزا دى فار جاس الأصغر لاقبائه بالاعتراض تخفيفاً لوقفه أمام المحكمة للقدسة ، وهى محاولة نبيلة بشكر عليها ، لما كان من الشاب الشقى إلا أن باغته وأغمده فى جسده سيفاً حصل عليه خلسة .. لكنهم سيعيدونه إلى السجن ولا ريب مكبلاً بالأغلال ، هو ووالده .. !
بالاشاعة !.. ماذا يكون الحال لو اعتقلوا بدمروحقا وقتلوه ، ووجدوا معه منديل لورزا للطرز باسمها !

كاد يرمى على السكينة من هول الموقف .. على أنها توسلت بما فى وسعها من الشجاعة ، قائلة :

— وهل تظن ياسيدى أن هناك فرصة لاعتقاله ؟

— فرصة كبيرة .. إنهم يقصدون كما يظهر إلى ميناء (ملقا) .. لكن ذراع ديوان التفتيش طويلة ...

على أن للركيز مالبث أن غير موضوع الحديث قائلاً :

— دعينا من هذا يابنتى ، ولتحدث فى أشياء أخرى سارة .. فى اعتقادي أن ديجو دى سيلفا سينجو ويشفى ، ولذلك أرجو أن تذكرى فى صلواتك ، لأن موضوعا يهمنى ...

فقالت لورزا وهى شاردة الفكر :

— يهمنى ؟

فقال وقد سلا له أن يظلم تشوقها :

— هل أقول لك سرأ كنت أكتبه عنك ؟ الواقع أن هذا الموضوع قد تكلمنا فيه قبل الحادث المزن ، وإذا شامت إرادة الله أن يشفى دى سيلفا ، فسيتم على خير الوجوه ..

والاختصار يابنتى ، إني قررت ، بناء على إلحاح دى سيلفا ، أن أزوجه منه ...
أليس اختياراً موفقاً ؟ أليس أحسن صنفاً ؟
— نعم يا أبتاه ..

قالت لورزا متلعشة وهى تنظر إلى أنطونيا من طرف خفى .. فيالها من سخرية أن يختار دى سيلفا من دون الرجال كافة زوجاً لها ، وهو ضحية عدوان بدرو !
وراح للركيز يطرى مناقب هذا الزوج ويثنى عليه قائلاً :

— إن السيور دى سيلفا رجل موسر ، وهو من المقربين إلى المجمع المقدس ، ومن المروفين فى البلاط .. ولولا تلك المغامرة عبر البحار

فقالت أنطونيا وقد تومنت فى هذا ماقد يؤدى إلى الأرجاء :

— عبر البحار يا صاحب الفخامة ؟

— هى جزائر الهند اللعينة ، تلك التى تآتى على الأموال وتبتلع الثروات ! .. فقد كان مقرراً أن يرافق دى سيلفا الأب ايناسيو إلى جزائر الهند الغربية لتوطيد سلطان المجمع المقدس فى أرجائها لكن هنالك غاية أخرى هى استثمار أمواله فى شراء الأراضى الرخيصة وامتلاك الرقيق وقد يؤدى هذا إلى ضياع أمواله ...

وقطب للركيز برهة ثم أردف أخيراً وقد انبسطت أساريره :

— لكن هذا قد انتهى وسيرتعل رئيس محكمة التفتيش دون أن يصحب دى سيلفا معه بسبب حاله الصحية ... ومتى شفى دى سيلفا وتزوج واستقر ، فستفارقه ولا ريب تلك الأفكار التى كانت تراوده عن الاسفار والترحال ... والنتيجة أنه الرجل الوحيد الذى يليق لك يابنتى ...

لم تعترض لورزا .. فقد تقبلت بالتسليم ما لا بد منه ، وراحت نفسها على السكينة والامثال .. ومهما يكن فان دى سيلفا بدا فى نظرها رجلاً من أهل الاناقة والوسامة وهو ليس بكبير السن ، وكان يمكن أن يختار والدها زوجاً أقل منه جاذبية ... فالحمد لله على هذا الاختيار أولاً وآخراً وكل ما ترجو هو ألا تكشف مقامراتها الغرامية مع بدرو ...

وما كادت لورزا تلوذ بمخدعها حتى أجهشت بالبكاء ندماً على ذلك العيب الترامى

التي تورطت فيه مع يدرو ولم ترد في اتهام أنطونيا بأنها الحركة له والوحية به ...
وقات الفتاة والدموع تملأ عينها :

— هل تظنين أنهم اكتشفوا للتدليل معه ؟ ..

— لا ، في الأغلب يا عزيزتي .. لا تسكدي خاطرك ...

— هل تظنين أنهم سيقضون عليه ؟

— أدعو الله ألا يكون ذلك ...

— وأنا معك في الدعاء .. إنها المسية لو عرف أمر للتدليل .. تعالى نصلي معا
يا ابنة العم ... إني نورت للقديس سان كريستوبال عشر شمعات إذا أفلت ونجا ..

ورفعت لوزا عينها الجميلتين إلى السماء ...

وهكذا كان يدرو يسير تساحبه دعوات لوزا ، ينض النظر عن الباعث عليها ..



وفي إحدى المغاور الجبلية جلس يدرو يرقب مغرب الشمس عن كذب من جارسيا
التائم ، فمالبت أن أخرج من جيبه منديلا حريويا بسطه في إجلال ونظر إلى الاسم
للطرز عليه نظرة التقديس والاكبار ... وقد راح برهة يستحضر محيا صاحبه المشرق
حتى نسي ما هو فيه من غربة وبلاء ، ثم رفع للتدليل إلى شفتيه ولغته وردة إلى جيبه في
حرص بالغ كما يفعل الشحيح بذخره الثمين ..

الفصل التاسع عشر

يمتاز ميناء سانلوكار الاسباني بظاهرتين بارزتين ... الاولى أنه أضحي منذ إعمار
(كريستوف كولمبس المستكشف العظيم منه في رحلته الثالثة إلى الدنيا الجديدة) ،
ميناء متزايد الأهمية تبدأ منه السفن البحرية رحلاتها إلى جزائر الهند الغربية ...
والثانية أنه اكتسب حصة خاصة جعلته بآمن من طائفة القانون ، ومن ثم كان مأوى
شذاذ الآفاق من مختلف الأمم والاجناس ، منهم البحارة والتجار والشعوذون والباعة
والمحتالون والصوص ، والنساء المافطات ، يقيمون جميعا في أكواع خشبية في منطقة
خاصة بالميناء لا تمتد إليهم يد القانون ، وإنما قانونهم الاوحد هو قانون الحق للقوة
والبقاء للاصلاح ...

وإلى هذا الميناء وصل يدرو دي فارغاس وجوان جارسيا متذكرين في زى رهبان
الفرنسكان ، وأقاما ينتظران إبحار السفينتين اللتين تقلهما إلى وجهتهما المختلفتين ..
فأما يدرو فيستقل السفينة (ايوليا) إلى إيطاليا ، وأما جارسيا فيقصد في السفينة
(بونيفاس) إلى جزائر الهند الغربية .

ولقد كان هذا المراق الوشيك بين الصديقين ثقيلًا على النفس محبًا لها .. ولا غرو ..
فقد كانت رحلتها عبر الممر الأسبانية بما اكتشفها من الشاق والأخطار والخوف ،
موثقة للروابط الأخوية بينهما ، مؤلفة بين قلبهما بما لا تقصم عراه الأيام .. لكن
يدرو كان ملزما بتحقيق الوعد الذي قطعه لأبيه وهو الاحاق به في إيطاليا ، أما جارسيا
فلم يكن يلد له إلا حياة البحار والاستكشاف والمغامرات .. وهكذا كان الصديقان على
طرفي قبض ، ولم يكن إلى التوفيق بين غايتيهما من سبيل ..

وفي مساء يوم وصول الصديقين إلى الميناء ، جلسا في الحانة مع هذا الخليل للعجيب
حيث التف بعضهم حول جارسيا يستفسره عن الأحوال السائدة في جزائر الهند وعن
أفضل الوسائل التي يمكن بها استثمار الأموال وشراء الأراضي والرقيق .. وبينما كان
جارسيا يجيب عن أسئلتهم التي لا حصر لها ، إذ وثب من مكانه فجأة وثبة كادت تقلب
للائدة رأساً على عقب ، وصاح قائلاً :

— جورج سائيرا .. أهلا أيها الصديق :

فقد رأى قائد السفينة (بونيفاس) التي سيبحر عليها داخلًا إلى الحانة ، فلتقاء
بذلك الأساوب الساخبا العجيب ، وأردف مخاطباً جلساءه :

— اليكم أيها الأولاد السيد الذي يزودكم بما تطلبون من أثاث الأبناء وأصدق
الأخبار .. إنه كان في جزيرة كوبا حديثاً .. إنها أصلح مكان لاستثمار أموالكم ..
حذتهم بما قلته لي هذا الصباح يا جورج .. بفضل واشرب معنا كأساً ..
— لن أشرب إذا كانت من نوع خمر ك ..

فاه الريان بهذه الجملة ضاحكاً ، فقد كان امتناع جارسيا عن شرب الخمر واقصاره على
شرب الماء معروفين للجميع .
ومهما يكن فقد جلس الريان إلى مائدة جارسيا ويدرو ، وبعد أن شرب كأسه

راح يتحدث والجميع ينصتون اليه باهتمام عن تلك الأرض العظيمة التي اكتشفت في العام الماضي بعد رحلة عشرين يوما إلى الغرب من كوبا والتي أطلق عليها اسم يوكاتان وقيل إنها عامرة بالمدن للشيدة والأراضي الزراعية ويقطها هندو حمر يلبسون الملابس وفيها هياكل ذوات أصنام وذهب يفوق حد الوصف .. ثم استطرد الربان يقول وقد خلب العقول واستهوى الأسماع :

— نعم أيها الصديق .. أنت على حق !. إن الغرب هو الوجهة التي يجب أن يتجه إليها كل انسان !.

وحينما تركت كوبا في رحلتي الأخيرة لم يكن للناس من حديث سوى حديث الأسطول العظيم الذي يحشد (فيلاسكيز) حاكم كوبا للإبحار إلى تلك الأرض الجديدة للاستيلاء عليها قبل أن يسبقه إليها أحد ، ولم يكن للناس من شاغل إلا جمع ما يمكن من مال وعتاد للمساهمة في تلك الرحلة الجبارة ... وهناك منافسة حامية بين كبار اصحاب المزارع في كوبا على من يضطلع بقيادة الحملة ، لكن الغالب أن (هرنان كورتيز) سيفوز دونهم ... فهو واسع الثراء وثيق الصلة بحاكم كوبا !.

وكان بدرو يسمع هذا الحديث في بهر متزايد وقد تملكه شوق لا عهد له بمثله ، ولم يتألك أن ذهب يقارن في نفسه بين هذه الحياة الجديدة الحافلة وبين الحياة التي يراد أن تكون نصيبه في إيطاليا .. فهل هناك أدعى إلى المجد من المساهمة في مثل هذه الحملة البحرية الجبارة لامتلاك الأراضي البكر ذات الثراء العريض وقهر أصحابها الوثنيين ؟. أجل ... هو ذاك ... ولا شك أن المساهمة في هذا العمل الجليل أفضل أضعافا مضاعفة من الاندماج في فرقة (بايار) الفرنسي لمجرد تلقى أصول الفروسية واحتذاء أساليب الحرب ولم يكذب بدرو يبلغ هذا الحد من التخيل حتى ألفى نفسه يسائل الربان وهو بهم بالانصراف :

— هل تظن يا سيدي الربان أن الأسطول للتجه إلى يوكاتان قد أبحر فعلا ؟.

والحق أن بدرو شعر بأن مستقبله كله يتوقف على الجواب للرتقب ... فان أجاب (ساتيرا) بالاجاب ارتحل بدرو إلى إيطاليا .. وإن كان الجواب سلبيا وكان ثمة متسع من الوقت لباوغ كوبا قبل إبحار الاسطول ، فانه منضم إلى جارسيا في رحلته

إلى الغرب .. ولا شك أيضا أن والده سيقر هذه الحطة بعد أن يعلم الدوافع إليها ، وبوسعه أن يبعث إليه رسالة في هذا الصدد مع ربان السفينة (ايوليا) الداهية إلى إيطاليا .. ولم يتألك أن سبغ به الخيال في تلك البقاع المليئة بالذهب ، ورأى نفسه وقد عاد منها إلى اسبانيا غنيا ، ذائع الصيت ، مردود الاعتبار ، تتفتح أمامه أبواب قصر آل (كارخال) حيث تنتظره لوزا ..

وقال الربان ردأ على سؤاله وهو يتحفز للانصراف .

— لا بد لهم من وقت كاف لإعداد السفن ، وتخزين المؤن ، وتوفير الأموال ، وحشد الرجال ... ولا أعتقد أن الحملة البحرية ستقوم قبل نهاية العام ، ومازلنا في منتصف شهر سبتمبر .

— وهل لي مكان عندكم على ظهر السفينة يونيفاس ؟.

وهنا صاح جارسيا :

— مكان لك ؟. مرحى أيها الصديق !. دعنى أحضنك !. نعم !. إن لك مكانا

رحيباً بيننا على ظهر يونيفاس !.

فقال الربان باسماء وهو يخرج :

— انفقنا .. إلى اللقاء على ظهر السفينة أيها الرفاق ..

القسم الثاني

الفصل الاول

وفي صباح يوم من أواخر شهر نوفمبر عام ١٥١٨ رست سفينة في ميناء (ترينداد) وأنزلت ركبها القادمين من (سنتياجو) للانضمام إلى الحملة القاصدة إلى الغرب تحت قيادة الجنرال (هرنان كورتيز) واذ نعي إلى القائد العام للحملة في مقره هذا ان على رأس المتطوعين القادمين مستكشفا من رجال كولبس يدعى (جوان جارسيا) فقد أوفد رسوله (ساندوفال) للترحيب بالقادمين ...

وسار القادمون في المدينة يقصدون إلى مقر القائد العام في الميدان الكبير ، فاذا هو مكتظ بأشتات الناس من أهل المدينة ومن البحارة والجنود المنضمين للحملة ومن النسوة الملتحقات بها بين أسبانيات وهندييات ... وصادفوا في الطريق مناديا

يدق على الطبل مهيبا بالاهلين أن ينضموا إلى الحملة التي يوشك أن يبرح (ترينداد) قاصدا إلى الغرب باذن وتحت رعاية حاكم كوبا للتجارة والاستعمار والاستكشاف ، بقيادة الجنرال هرنان كورتيز ، شرا للدين بين الوثنيين ، وبسطا سلطان عاهل اسبانيا الملك كارلوس ، وضاما للذهب والراء ينالهما كل من يساهم في الحملة بنصيب ...

وراح (ساندوفال) يقول لهم في الطريق إن الجيش الذي تتألف منه الحملة يريد ويتضاعف بمضى الوقت ، فهو الآن قوامه أربعائة بخلاف بحارة السفن والهنود ، وراح يعدد لهم أسماء الأشخاص البارزين العاملين تحت إمرة القائد العام (هرنان كورتيز) وما منهم إلا من له ماض حافل في عالم الرحلات والأسفار والاستكشاف .

وحدثهم (ساندوفال) عن الخلاف الذي حدث أخيراً بين (فيلاسكيز) حاكم كوبا وبين القائد (هرنان كورتيز) على قيادة الحملة في (سنياجو) .. فقد أراد الحاكم أن ينزع القيادة من (كورتيز) رغم أن هذا قد ساهم بأوفر قسط في تحويل الحملة ، بيد أن (كورتيز) لم يعأ به بل أمر بإعلاء السفينة للحملة من ميناء (سنياجو) متحديا أوامر الحاكم .. ففاوضوا إلى (ترينداد) أوفد (فيلاسكيز) حاكم كوبا رسولا إلى نائبه في (ترينداد) يأمره باعتقال كورتيز وإعادته إلى (سنياجو) .. لكن حاكم (ترينداد) كان من الحصافة وبعد النظر بحيث أبى تنفيذ هذا الأمر والا استهدفت مدينته لسطوة جنود (هرنان كورتيز) وعدوانهم ، وترك القائد العام يستكمل أهبة في المدينة من الرجال والعتاد واللؤونة قبيل الانحار نهائيا إلى الغرب لتحقيق مشروع الحملة العظيم ..

وبلغوا أخيراً مقر القائد العام .. ودلف بدرو ورفاقه إلى غرفة قسيحة غصت برجال من طراز آخر غير الذين صادفهم في الطريق ، وأغلب الظن أنهم ضباط الحملة ، وكان فريق منهم جالسين إلى منضدة يتشاورون حول إحدى الخرائط ، بينما انهمك آخرون في لعب الورق ..

وما لبث أحد الجالسين إلى الخريطة أن رفع رأسه لدى دخولهم قائلا :

— أهلا يا بني (ساندوفال) .. هل جئت بالزملاء الأفضل ؟ ..

كان التشكك شخصا طويل القامة ، نحيل العود ، أسمر الوجه ، يتم منكبيه المريضان ، وذراعا الطويلتان عن قوة بدنية موفورة ، ويبدو متقدما في السن رغم أنه في أوائل العقد الرابع من عمره ، وله لحية صغيرة لم تحف أثر جرح قديم في ذقنه .. ولما تطلع (بدرو) إلى عينيه وآنس نظراته الرصينة للشعبة بروح اللودة والقيم لأفئدة الناس أدرك على الفور أنه في حضرة (هرنان كورتيز) قائد عام الحملة ..

ونهمض (كورتيز) من مكانه يصاقح (جارسيا) مرحبا به مشيدا بتاريخه الحافل .. ولما قدم إليه (بدرو دي فارغاس) قال وقد لاحظ عليه علامات الاهتمام :

— لعلك من أقرباء القائد الكبير فرنسكو دي فارغاس ؟ ..

— أنا ولده يا سيدي ..

وسرعان ما احتضنه (كورتيز) قائلا :

— يا للصادقات السعيدة .. إن والدي ووالدك كانا صديقين ، وإن كان والدي لم يبلغ من المجد ما بلغ والدك .. أيها السادة .. (غاطبا ضباطة) .. هذا قال حسن .. إن نجل فرنسكو دي فارغاس قد انضم إلى حملتنا ..

وبعد أن تبودلت التحيات قال (كورتيز) :

— لعله يترك أن تعمل ياورأ لي ، ولا شك أن مواهبك سترفعك إلى مراتب أعلى ..

ولما أعرب بدرو عن سروره بهذا التعيين ، قال كورتيز باسما :

— إنك والسيد جارسيا ستتناولان طعام الغداء على مائدتي .. وستبدأ عملك منذ غد بالاشراف على تخزين اللؤونة .. والآن أريد أن أشاهد الجواد الذي بلغني أنك جئت به معك ، فإن الجياد نادرة في الحملة ، وستكون له قيمته ..

وكذلك كانت لائحة انضمام بدرو إلى الحملة منعمة لأماله مشددة لزمه ، وفارقه المخاوف التي اتابته أول الأمر لاقدامه على هذه المعامرة المجهولة العواقب ضاربا بآراء أبيه عرض الحائط ..

الفصل الثاني

انهمك (بدرو) في الأيام التالية في المهمة التي وكلت إليه ، وهي الاشراف على تخزين اللؤونة للحملة من حيز ولحوم محفوظة وما إليها .. كما وكل إليه أيضا حراسة

(الخزانة العسكرية) للحمة ، وهى التى قال له القائد العام انها وان كانت فى الوقت الحالى أقرب إلى الهواء ، فلن تلبث أن تتلى بالذهب حتى تفيض ولم يكن يعلق (بدرو) فى هذه الأيام السيدة غير خوفه من ترمى الأنباء الى مسامع (هرنان كورتيز) عن تمقب (ديوان التفتيش) له واساحبه (جارسيا) ، فيعمد بصفته القائد العام للحمة إلى تسليمهما لرجال المجمع المقدس حتى لا يستهدف لعنه بسببهما .. وقد اشتد هذا القلق فى نفس بدرو عشية إبحار الأسطول من ميناء (ترينداد) ، حتى لم يجد بداً للترويع عن نفسه إلا بارتقاء هضبة مشرفة على البحر والجلوس فى ظل نخلة سامقة عسى أن يكون فى هذا الجو العليل الرطيب ما يخفف من هواجسه ويسكن قلقه ..

وسبحت به الأفكار إلى أسبانيا البعيدة وإلى من خلف فيها من أناس .. دى سيلفا غريمه الألف الذى شق عليه بخته والاقتصاد منه ، وإن وخزه ضميره إذ استدرجه إلى الكفر وألقى به فى جهنم أبد الآبدين .. وكانا الذى أنفدت حياته والذى وعد أن يذكرها وقت الصلاة فكان بوعدة بارأ كلاً واثته الظروف .. ترى ما هو الآن مصيرها مع اللص السفاك سول ؟ ثم والداه .. أمها بخير ، وقد بلعا إيطاليا فى سلام ؟ أم قد امتدت اليهما يد الثواب والأرزاء ؟ وأخيراً وليس آخراً لورزا دى كارفال ، أتراها تذكره وتفكر فيه .. ؟

ولم يتألق أن أخرج من حبه منديلها وبسطه فوق ركبته وقد استسلم للذكريات مسائه العاطر معها فى ظلال أشجار حديقته .. إنه لا يتمنى فى حياته سوى الفوز بها ، فان وفق إلى هذا فذلك غاية البتة ، وإلا فعلى الدنيا كلها الغناء .. ولم يلبث أن أفاق منتفضاً من تأملاته وأحلامه حين آنس ظلاً قد سقط فى ضوء القروب على الأرض أمامه ، فلما التفت حوله إذا هو أمام الأب (برنوميو أوليدو) قسيس الجيش ..

وفى الحق أن بدرو بهت من هذه المفاجأة فى تلك البقعة الخلوية الساكنة ، لولا أن الأب الصالح طيب خاطره وسكن روعه ، وجلس بجانبه قائلاً :
— أراك تفكر فى أسبانيا يا سيد دى فارجاس .. يبدو أنها بعيدة قاصية ، وأبعد منها قاعة معية .. ؟

ذهل بدرو من صدق هذا النخمين .. فضحك الأب أوليدو قائلاً :

— لا تدهش يا بنى .. ولكن إذا انتحى شاب حديث العهد بالقدوم إلى هنا ناحية منعزلة وجلس يحرق صوب الشرق وعلى ركبته منديل ، فأغلب الظن أنه يفكر فى الوطن وفى الحبيبة .. فاطمئن يا بنى وقر عيناً .. ستعود إلى وطنك ذات يوم وملء جيوبك الذهب وعلى هاتك أكلیل الترف ، وتكون لك القساة النيلة ، وهكذا تتحقق كل أحلامك ..

ثم قال له الأب فجأة وقد غير لهجة حديثه :

— لماذا لم أرك تشهد الصلاة والقداس ؟

والواقع أن بدرو طالع فى عيني هذا الأب من صفاء النفس وبقاء السريرة ما جعله يسكن إليه ويعزم مكاشفته بما يهبط ضميره ويثقل على قلبه .. يد أنه قال له أول الأمر :
— سأخبرك السبب يا أبتاه ، إذا أجبته إلى شيء واحد : ما رأيك فى القسيس

الذى يستخدم اعترافاً يسمعه ضد شخص للتعرف ؟

فأجاب الأب أوليدو :

— فهمت مرادك .. على هذا القس لعة الله إلى يوم الدين ، مهما تكن ذنوب هذا الرجل .. والآن ، صرحى بما يثقل ضميرك ..

وهالما يردد بدرو فى الاعتراف بين يدي القس بقصته كاملة دون أن يخامرهم خوف ولا وجل ، فلما فرغ شعر كأنما تحرر من غل ثقل ، ثم أورد فى النهاية قائلاً :
— ها قد رأيت يا أبى أتى وضعت نفسى ووضع جارسيا بين يديك ..

فجاوبه الأب أوليدو هذا الجواب المروع :

— لى أنا يا بنى بين يدي منذ صباح اليوم ..

وأخرج القس من حافظته ورقة بسطها قائلاً :

— وإنك لم تخبرنى فى قصتك هذه بخديك لم أكن أعلمه ، فيما عدا ما يتصل بشخص دى سيلفا .. لكى أردت أن أسمع القصة من شك .. أتقرأ اللاتينية ؟

فأجاب بدرو وقد جمد الدم فى عروقه :

— قليلاً ...

— هذا أمر من أسقف سنجاجو إلى هرمان كورتيز باعترافك أنت وجاريسيا بناء على طلب ايناسيو دي لورا الذي هو الآن في جزيرة سانتا دومينجو لمباشرة أعماله المتعلقة بالجمع للقدس .. وإن ماسرته على الآن مدون في هذا الأمر ، وإن كان بأسلوب يثير وجهة نظرك .

إذن فقد صحت هواجس بدرو وتحققت تلك المخاوف التي ساورتها في الأيام الأخيرة أحقا قد جاء دي لورا إلى الجزائر ؟

تذكر بدرو الآن ما كان قد أخبره به دي سيلفا من قرب ارتحال رئيس محكمة التفتيش إلى القرب .. وإذن فقد قضى عليه وعلى جاريسيا بالهلاك ! ولن يستطيع كورتيز ولا أوليبدو شيئا إزاء هذا الأمر النافذ للزعم ، مهما يكن من انجيازها إلى الرحمة والترفق ...

وأما القس فقد استطرد يقول :

— إن القائد العام قد أعطاني هذا الأمر ، وقال لي إنه اليوم في شغل عن الأساقفة والأمور اللاتينية إذ هما من اختصاصي ...
— إذن فهو لم يقرأ الأمر بعد ؟
— كلا ...

— لم يلبث بدرو أن استوى قائما ووقف برهة يحرق شطر المحيط وقد تصور حين الخيال الأسطول يبحر إلى بوكاتان بغيره وغير جاريسيا .. هنالك عض على شفتيه وقال لنفسه : إني رهين مشيتك .. ماذا تنتظر بعد ذلك ؟

واستدار لمواجهة القس ، فشد ماعلكه الدهش بل الدهول إذ أبصره يمزق الأمر الكتاني طولا وعرضا .. فلما فرغ ألقى بالقصاصات في القضاء تذروها الرياح ، وقال في النهاية :

— اتبهنا من هذا الأمر .. إن الرسول الذي جاء به يريد أن ينضم إلى الحملة .. ثم إن الرسائل عرضة للاضياع .. وعمما قريب تبقى المسافة شاسعة بيننا وبين كوبا ..
— ماذا تقصد بالله يا أبتاه ؟
فنهض القس بدوره قائلا :

— أعني ماقلت يا بدرو دي فارجاس .. لو أنك لم تعترف بين يدي لما مزقت هذا الأمر الكتاني .. لكن الصدق يضل كثيرا من الذنوب والكبائر ، وأن الأب برتولميو أوليبدو لا يكره في الدنيا شيئا سوى الظلم ..

— لكن القائد العام ؟

— سأقول له بعض ما في الرسالة ، وهو أن أسقف سنجاجو يبعث إليه بركاته فما تمالك بدرو أن ركع أمام القس قائلا :

— ماذا تراني يا أبتاه أفعل حتى أبرهن لك ؟ ..

— بوسعك أن تظهر التوبة يا بني

— نعم يا أبتاه .. وعلى أي صورة تريد أن تكون ؟

فقال الأب أوليبدو برقة :

— عليك أن تستوحب غفران الله لك ورحمته بالصلاة على روح ديجو دي سيله فلبث بدرو برهة صامتا لا يجيب .. ثم قل أخيراً :

— أقسم أني فاعل ماشئت ...

فوضع الأب يده على رأس الشاب وأماله إلى الخلف وقال وهو يتفرس في عينيه :

— هذه توبة عظيمة يا بني .. إن رحمة الله قد وسعت كل شيء .. اذكر هذه

الحقيقة حين نبحر غداً ، ولا تبحر تذكرها كل حين ..

الفصل الثالث

لن ينسى بدرو ما عاش ذلك اليوم الحافل العصب الذي قضاه وهو يحرس الكنز في إحدى غرف الهيكل المهرى بمدينة (سمبوالا) الهندية ..

لقد سلخ الأسطول المؤلف من إحدى عشرة سفينة شهرين يختر عباب المحيط حتى لاحت للأفق أخيراً أرض (بوكاتان) ذات الشواطئ الرملية المنبسطة ، تمتد وراءها الغابات والأدغال ، وترتفع من بعدها الجبال الشاهقة للكتابة بالثلوج ..

وكان مشهد الأرض للعودة نقطة التحول في تاريخ الحملة وأغراضها .. فإن الجنرال (كورتيز) القائد العام ما لبث أن أعلن نهائياً نخله من سلطان حاكم كوبا ، وأنشأ

يزحف بجيشه للاستيلاء والاستقرار وتعيين القبائل الهندية التي تعيش على الفطرة وتعيد الأصنام وتقدم القرابين البشرية على هياكل الآلهة ، وقد كان الرأي السائد أول الأمر بين أغلب أفراد الحملة أنها ما قامت إلا لجمع الذهب من الهندو الحر بأبخس المهاديا ، والاعجار في الرقيق .. وفي خلال شهرين من عبوط الحملة إلى اليابسة ترك الجيش معسكرا . في (أولوا) وزحف شمالا إلى مدينة (فيلاريكا) ثم استقر بعدها الآن في مدينة (سمبالا) .. وقد استطاع كورتيز أن يتخذ له من الهندو حلفاء في سمبالا مقره الحالي وبين قبائل (التوناك) المنتشرة على الشاطئ بعد أن حملها على الاسلخ من سلطان الامبراطور (مونزوما) عاهل سلال (الآزتيك) المتربع على عرشه فيما وراء الجبال في ربوع المكسيك .. وباغاذ مدينة فيلاريكا الحصنة قاعدة خلفيفة للجيش ، وبعد الاطمئنان إلى ولاء قبائل التوناك . أضجى السير إلى داخلية البلاد أعون على بلوغ الأهداف ..



وقف بدرو دي فارحاس يستعرض هذه الراحل في ذهنه وهو يضطلع بنوبة الحراسة على الكنز في إحدى غرف الهيكل الهرمي بمدينة سمبالا ، وقد ثقل عليه هواء الليل الخانق في هذه البقاع الاستوائية حتى ساوره الحنين إلى الهواء الطلق الذي طالما امتلأت به رثاء على ظهر سفينة القيادة طيلة الأشهر الماضية ..

إن هذا الكنز الذهبي المكس في الصناديق التي يقوم بدرو على حراستها جدير أن يجعل ممن يستحوذ عليه أميرا في أسبانيا وتهدى له الزواج بالفتاة التي يحب .. لكن الخطة التي استقر الرأي عليها الآن أسوء الخط هي إرسال هذا الذهب كله إلى ملك أسبانيا طلبا لاعترافه بشرعية الحملة وتقريرا لاستقلالها عن سلطان (فيلاسكيز) حاكم كوبا .. بل إن (مونتيجو) و (بورتسكاريرو) قد اختيرا لهذه المهمة تمثيلين للحملة . وعما قريب ستقوم بهما سفينة خاصة لحمل الذهب إلى أسبانيا ، ذلك الذهب الذي جمع بعضه من الاعجار مع الهندو ، وجاء بعضه كهدية من الامبراطور مونزوما القابع على عرشه في الجاهل الداخلية التي لم تطأها بعد أقدام الغزاة .. وما يرح بدرو يذكر رسل مونزوما حين جاءوا بالهدايا يكسو رؤوسهم الريش وتزينهم الحلى الرنانة وتثقي آذانهم

وشغافهم الاقراط وقد التف حولهم أفراد الحملة يتكالبون على رؤية السبايك التي جاءوا يقدمونها باسم الامبراطور ويقولون إن مونزوما العظيم يهديهم تحياته ويأمرهم بالابتعاد عن حدود ملكة الترامى الأطراف .. فما كان جواب كورتيز إلا أن أهاب برجاله قائلا : — أيها الزملاء .. هل تظنون أن هذا الامبراطور قد أرسل اليانا هذا الذهب جبا في سواد عيوننا ، وأنه لا يستحوذ لديه على أضعاف أضعافه .. ؟ وحق رأسي أيها الاخوان أن هذا قطرة من بحر . وجزء يسير من كل عظيم .. ! ثم لا تنسوا أنه يخشى بأسنا ، وإلا لما أرسل اليانا هذه الهدية .. فالآن إذن قد حق علينا أن نزوره في ربوع دياره .. أو تقنعون بهذه الهدية الزهيدة ، دون السكوز الجزيلة التي تنتظركم في الداخل ؟ حاشاكم أن تفعلوا !

بهذا أقنع كورتيز رجال جيشه وأفراد حملته ، ومضى بهم قدما يستكشف ويوطد أقدام الحملة ، دون أن يعأ بمعارضة المعارضين من أفراد حزب فيلاسكيز ، وعلى رأسهم جوان اسكوديرو ، أولئك الذين يدينون بالطاعة والولاء لحاكم كوبا ، وكانوا يؤثرون أن تقتصر الحملة على الاتجار وجمع الغنائم والنفاس في المناطق الساحلية ، لا التورط في برنامج لارتيز الضخم الخطير .. وإذا كانوا قد سكتوا على مضض ، فإنما كانوا يتحينون الفرص للتمرد والثورة ، فكأنهم أشبه بالجذوة السكمنة تحت الرماد .. من أجل هذا وجبت حراسة صناديق الذهب والسر عليها ، وكان مع بدرو لهذه الغاية كلب ضخمة مدرب ، ووقف بياب الحجرة جنديان مدججان بالسلاح .

ولم يمالك بدرو وهو يجيل في ذهنه هذه الحواطر أن رنا بنظره إلى صناديق الكنز ، واختص بنظره ذلك الصندوق الذي يحتوي على سيكة ذهبية ضخمة تمثل قرص الشمس ولها وزن انسان . والذي يحتوي فوق ذلك على خمس لآلى زمردية كبيرة الحجم بالغة النفاسة محفوظة في كيس ناعم من جلد الوعل مزركش بالقوش الذهبية ، واستقر الرأي على رفعها هدية إلى ملك أسبانيا ، ثم ابتعد عن الصندوق وقد ازدهاء أن يناط به السهر على هذا الكنز الثمين ، وأن يبلغ من ثقة القائد العام به أن يختاره لهذه المهمة للشرف الجليلة ..

ولم يلبث بدرو أن خرج من العرفة إلى شرفة المدرج الهرمي ووقف يطل على فناء

هكذا للتي الضخم حيث كانت الولائم قائمة على قدم وساق احتفالا بتظهير المكان من الاصنام وتحطيم الهياكل التي كانت تسيطر فيها دماء القرابين البشرية ، وتسجيلا لمراسم الزواج بين الفتيات الهنديات وبعض رجال الحلة بعد هداية أهل المدينة إلى جادة الدين وبينما كان بدرو يقرب هذه الشاهدة عن بعد وهو يحسد في نفسه أصحابها لما يستمعون به من التسلية والترديد ، إذ سمع وقع أقدام ترتقي درجات المبنى الهرمي سراعا ، ثم انتهى صاحبها إلى الشرفة حيث وقف بدرو ، فإذا هو الجندي فاريل ، وكان ينادي الانزعاج يلهث من فرط الجهد ، وراح يقول بصوت متقطع :

— اسرع بالله يا سنور دي فارجاس ! إن جاريسا كان يسكر مع اسكوديرو في حجرة الكابتن بلاسكو دي ليون ، فجن جنونه ، وحاول قتل الكابتن ! إنه هائج كوحش حبيس ! ولا يستطيع أحد أن يقترب منه .. وقد استدعى الكابتن بلاسكو أحد الرعاة وأقسم أن يقتله ، يا لطيف ! يا مغيث ! اسرع به ! فقد تستطيع أن تتدخل لمنع الكارثة !

فلم يكذ الجندي يتم كلماته حتى استدار بدرو إلى غرفة الكفر فأغلق بابها بالقفل ووضع المفتاح في جيبه ، وكان مطمئنا إلى وجود الكاب في داخل الغرفة وقيامه بتينو ونافارو بالحراسة خارجها وهما شخصان مؤتمنان .. وفي الحق إن بدرو لم يعبأ في هذه اللحظة بقوانين الجيش ولم يفكر إلا في جاريسا ، وأسرع بالابتعاد وهو يوصي الجنديين باليقظة والانتباه ...

الفصل الرابع

هرع بدرو إلى نهاية ساحل للمعبود وهو يكاد يطير طيرانا ، وكان فاريل في أثناء ذلك يفسر ما حدث وهو يتابعه قائلا :

— إن اسكوديرو جعل يتهم على جاريسا لأنه لا يشرب إلا الماء ، وقد اشترك سرمينو الملاح في الحديث ، ولكنه وقف في صف جاريسا ، وهذا غريب لأن اسكوديرو وسرمينو من حزب واحد ... ولكن جاريسا اغتاظ من الخيرية وشرب لكي يريهما أنه أهل للشرب وأكثر ، ثم استمر في الشرب .. وقد هرب الانسان قبل هياج جاريسا ... أما هو فقد جن جنونه ، وقلب المائدة ، وهجم على الكابتن بلاسكو يريد قتله ..

وبلغ بدرو المكان المخصص لسكنى الكابتن بلاسكو دي ليون ، فإذا هو قد احتشد أمامه جمع كبير يتدافعون بالنكاك لرؤية ما يدور في الداخل وكانوا متأثرين من هذا المشهد لما يتمتع به جاريسا بينهم ولما كانوا يتوقعونه من تطورات عجزته .. وما كادوا يصرون بدرو حتى أقسحو له الطريق كأنه قريب اتنان على فراش الموت

وفي داخل الغرفة وقف أفراد منهم تلوح عليهم دلائل القلق والانزعاج وبينهم كابتن بلاسكو دي ليون الضخم الأحمر اللحية يسمح للدم القوي يسيل من جرح في جبينه ، وكان بعد من واحد إلى عشرة بصوت أجش مبجوح .. ووقف عن كذب منه أحد الرعاة مسدداً سهمه إلى صدر جاريسا ، بينما تناثر في أرجاء الغرفة طعام المائدة والأواني المكسورة ..

وأما جاريسا فقد وقف محصوراً في أقصى الغرفة وهو يحتمل الوجه مرعب السحنة جامد العينين يعلو الزبد شديقه وقد تقوس منكبا كمن يتحضر للهجوم وشهر يده سيفاً ثقيلاً ...

وأدرك بدرو أن الكابتن بلاسكو قد أمهل جاريسا فترة يلقي فيها سلاحه ، بيد أنه كان ينادي بأرقامه شخصاً أصم ، إذ مضى يقول :

— خمسة ... ستة ... سبعة ... لعنة الله عليك يا جاريسا .. إني لن أسمح بهلاك رجالنا على يدي شخص مخبول .. لا اضطرني لإصدار الأمر بقتلك ! إن يكون بإمكانك وقف السهم إذا انطلق ! .. أنا لا أريد قتلك أيها الأحق للغفل .. دع هذا السيف ! فما كان من جاريسا إلا أن صاح به قائلا :

— سحقاً لك ولسهامك ! .. إني سأذبحكم ذبحاً في سبيل الله أيها المنود الكفرة يا أكلة لحوم البشر !

وتقدم متمهلاً .. ولم يكن نمة أدنى شك في أنه محموم غائب عن صوابه .. لكن بلاسكو لم يكن لديه وقت للاقتناع والقاش ، وقال لصاحب السهم :

— ثمانية .. تسعة .. هل أنت مستعد ؟ عشرة ... ولكن سرعان ما انطلق السهم إلى أعلى بضربة من بدرو وأصاب السقف ، فصاح بلاسكو مهتاجاً :

— يا للشيطان ! ماذا تقصد .. ؟

يد أن بدرو لم يغفل به ، ودنا من جارسيا يقول له :

— ألا تعرفني يا جاون ؟ كفى ! لاشك أنك لم تنس بدرو

— خذ هذه أيها الهندي ...

واستدار السيف ، وكاد يهوى ، ولكنه وقف في الفضاء ، وكأنه سيف جلال
يؤخر ضربته ، واختلجت العينان الحامدان يسيراً ..

فقال بدرو وهو ثابت في مكانه لا يتحرك :

— أيها الرفيق !

فتدلى السيف ، ومر جارسيا يده على وجهه قائلاً :

— إنك لست من الهنود ! أنت ...

وألقى السيف من يده ، وطوق بدرو بساعديه قائلاً :

— يا للسماء ! كنت أعلم أيها الصديق أنني أستطيع الاعتماد عليك .. يا لهذه القابة

العينة ! إني ضللت الطريق فيها .. سحقاً لهؤلاء اللوحشين ! إنهم لن يقدمونا قرابين

على مذابح آلهتهم ... إننا سنقاومهم الآن جنباً لجنب

وتغلى عن بدرو ، وراح يحلق في الجمع المحتشد أمام الباب ، فقال له بدرو :

— هؤلاء أصدقاء يا جاون ..

فقال جارسيا وهو يدير له نظرات لا تبصر :

— أين السيف ؟ ذراعك أيها الصديق ! إني أكاد أسقط من الاعياء ..

واشتد امتناع وجهه ، فتلقاء (بدرو) بين يديه ، وفي اللحظة هوى على الأرض

فاقد الرشد ..

وقال بلاسكو وهو يغلف عرقه :

— يا آله السموات !.. لقد كانت حنة عصية !.. إني لمعجب بثبات أعصابك

يا سيد (بدرو) وأنت أهل لكل ثناء .. لقد كان من أشد العار أن تضطر لقتله ،

لكن ماذا كان بوسعنا أن نفعل وقد تملكته شهوة القتل وسفك السماء ؟ ..

وأسرع الجميع إلى اسعاف (جارسيا) بعد أن أمنوا شره ، لكن (بلاسكو)

كان أسبقهم إلى معاونته ، فددوه على الأرض في ركن العرفة ، ووضع (بلاسكو)

حصيراً تحت رأسه ، قائلاً :

— دعوه يرقد هنا حتى الصباح .. واتركوا سطل الماء هذا بجانبه .. فإنه سيشرع

ببيران في حلقه حينما يفيق ..

ولما اذله أن (بدرو) إلى زوال الخطر استحلف الجميع أن يبقوا هذا الحادث على

السكبان حتى لا يبلغ مسمع القائد العام فيعاقب (جارسيا) العقاب الصارم ، فلما وعدوه

بذلك عاد أدراجه مسرعاً إلى غرفه الكثر ..

ولم يطمئن (بدرو) إلا حين ألقى الجنديين (نينو) و (نافارو) قائمين بالحراسة

على باب العرفة .. وقد أخبراه أن كل شيء على ما يرام .. فأوصاهما بالزمام الصمت بعد

أن قص عليهما ما كان من جارسيا .. ثم فتح قفل الباب ودلف إلى الداخل لتفقد

الصناديق ..

ولما دخل تشمعه الكلب الضخم ، فاطمأن بدرو وحمد الله على هذه النهاية الطيبة

التي انتهى إليها حادث كاد يتطور إلى مأساة ، وبعد برهة تمسدد الكلب ورقد وكأنه

يشاركه شعوره بالطمأنينة بعد سكون العاصفة ..

كان أمامه نصف ساعة قبل أن يخلفه زميله في الحراسة .. على أنه ما كاد يجلس فوق

أحد الصناديق حتى نهض من فوره ثانية وقد خيل إليه أن وضع الصناديق قد اختلف

عما كان عليه من قبل ..

وبينما هو في تردده إذ استرعى نظره شق متعرج مضى في جدار العرفة الخلفي لم

يكن قد رأى مثله من قبل .. فما إن دنا منه فأحس حتى شعر بقلبه يكاد يقف عن الحركة ..

كان الشق المتعرج هو ضوء القمر يذبح من انقراج باب غير محكم في الجدار ،

ولولا هذا الضوء لما ارتاب الناظر قط في وجود هذا الباب السري بين طبقات أحجار

الجدار ..

واستعان بدرو بأطراف أصابعه حتى دفع الباب الضيق ، فإذا هو يطل على شارع

مقفر خلف ساحة المعبد .. ولم يلبث أن أغلق الباب وقد تملكه الروع وعاد إلى

الصناديق موقناً أن أحدهم دخل العرفة في غيابه ..

وراح يحس أغطية الصناديق وأقفاها وهو يضرب أخملاً في أسداس وقد ذهبت به الظنون كل مذهب ، فألمأها سليمة محكمة ، إلا أقفال الصندوق الكبير المحتوى على القرص الذهبي والآلىء الزمردية ، فقد كانت محطمة ..

وأخرج بدرو من جيبه شمعة وقداحة وراح يورى نارها حتى أضاء الشمعة وقد أيقن بوقوع كارثة .. فسرعان ما تنفس الصعداء حين رفع غطاء الصندوق وانعكس ضوء الشمعة على القرص الذهبي الكبير .. ثم انبرى إلى الكيس المحتوى على الآلىء يفتش عنه ، فوجده حيث هو ... فتناوله ونحسه ... فاقطعت أنفاسه ... إذ كان الكيس فارغاً ..

ولم يقطن بدرو وهو في غمرة هذا اللصاب إلى الخطى التى جاءت من خلفه ... وأخيراً سمع قائلاً يقول له يرود :

— من أذن لك بفتح هذه الصناديق ؟ ..

فاستدار بدرو فى مكانه ، وإذا للتكام هو الجنرال هرنان كورتيز ! ..

الفصل الخامس

لعله لم يضبط قط مجرم متلبس بجرمه كما ضبط بدرو دى فارجاس حينما فاجأه الجنرال هرنان كورتيز القائد العام ويده الكيس الفارغ ، والأقفال المحطمة على الأرض والسيكة الذهبية منعكس فوقها وهج الشمعة التى بيده ..

وتناول منه كورتيز الكيس فلما وجده خاوياً قال له بهدوء مستطير يغنى وراءه عاصفة هوجاء :

— تكرم برد الأحجار الكريمة التى كانت به ..

— إنها ليست معي ياسيدى ..

— أخفا ؟ .. هل ظننت أن هذه هى القيلة المناسبة لجمع الثروة وأنا مشغول بأمور أخرى ؟ .. لكن خاب فألك ياسيدى ، فإنى لا أغفل لحظة واحدة عن السهر على مصالح الحلة ..

— لكننى ياساحب السعادة قد اكتشفت تواتر تعظيم الأقفال ..

— لا تكذب على .. إنى فحصت الأقفال بنفسى منذ أقل من ثلاث ساعات .. هل

بلغت بك الصفاقة إلى حد أن تزعم لى أن شخصاً دخل إلى هنا وأنت قائم بالحراسة ، وفتح الصندوق ، وانصرف ، ثم جئت أنت فاكشفت ما حدث ؟ .. أنحسبى من المغفلين ؟ لم يكن بد من بيان الحقيقة ، فهى أخف وقعاً من تهمة السرقة .. ولذلك قال بدرو متلعها :

— عفواً ياسيدى .. الحقيقة إنى تركت الحراسة بعض الوقت ..

— أحقا ؟ .. ولماذا ؟ ..

فقال بدرو بموها محرفاً :

— كان جوان جارسيا مريضاً ، واستدعانى بلاسكو دى ليون ..

— متى ؟ ..

— منذ نصف ساعة .. وقد عدت منذ برهة ..

فقال كورتيز بعد صمت مضطرب :

— لا بأس .. ضابط كاف بالاشراف على عملية هامة يترك مكانه على هواه ليمسك بيد صديق مريض إنها عاطفة نبيلة .. سننظر فى هذا الاهمال بما يستحقه .. وماذا يفعل الجنديان العيان لمساعدتك ، نينو ونافارو ، ولا أنكم عن الكلب ؟ .. هل ذهب الثلاثة للنبلية أيضاً ؟ .. أم تريد أن تقول إنهم اغتصبوا الصندوق ؟ ..

— كلا ياسيدى ... إنى أغلقت الباب عند ذهابى ... وكان الكلب فى الداخل فلما عدت وجدت الجنديين مكانهما وقفل الباب سليماً ..

— اللهم هبى صبراً .. أريد أن أعتقد أن أحدهم دخل الغرفة مخترقاً الجدران الصماء وأخذ الآلىء ، بينما كان الكلب يراقبه ؟ .. أريد أن توهمنى بقصة خرافية كهذه ، والحال أنى وجدتك والصندوق مفتوحاً ، وكيس الآلىء فى يدك ؟ .. قل لى قصة أفضل من هذه القصة ..

وتغلى القائد العام عن تهكمه فجأة .. وأردف :

— والآن ، على بالآلىء ، ودع المذد إلى وقت آخر ..

ثم قدحت عيناه شراً ، وقال وقد أمسك بخناق بدرو بقبضة من حديد :

— أريد أن استدعى الحراس وأمر بمحلك ؟ ..

وفي الحق إن اضطراب بدرو من تأثير المفاجأة قد عقد حتى الآن لسانه ، يبدو إن كلمات القائد وأعماله قد ردت إليه هدوء وتجلده ، وأضرمت كبريائه . . . ولئن كان كورنيز من الأشراف فهو مثله ولا يقل عنه شرفا . . . وكذلك أمسك بمعصم القائد قائلا :

— أرجو أن تتركني ياسيدي وتستمع لي . .

فأجاب كورنيز دون أن يتخلى عن قبضته :

— سامع . . فاختصر . .

فقال بدرو وقد ألقى ورقته الأخيرة :

— إن السارق دخل من باب في هذا الجدار . . وكان الباب متفرجا حينما عدت .

وهذا ما جعلني أعرف . . .

فقال كورنيز وقد أدار رأسه :

— أي باب ؟ لا أرى بابا . .

ولم ير بدرو الباب بدوره . . فتذكر أنه أغلقه ، وإذا الجدار الذي أشار إليه باب .

أصم كساقى الجدران . . على أنه قال :

— لحظة ياسيدي من فضلك

فتخلى كورنيز عنه ، وأسرع بدرو إلى الجدار وراح يبحث عبثاً عن موضع الباب .

بينما قال له كورنيز ساخراً :

— يالك من مختلق بأئس ضعيف الحيلة ! لو زعمت أن السارق نزل من السقف

لكنت أقرب إلى الإبهام ، لأن هذا السقف على الأقل من الحجارة

فراحت أصابع بدرو تنقب في جنون بين الشقوق وهو يقول :

— أنا لا أختلق . . أقسم بشرقي ياسيدي أن هنا بابا

— لا تحدثنى عن الشرع . . كفي ما أضعننا من وقت . .

يبد أن كورنيز كف عن إتمام كلامه وقال مشدوها :

— يا إلهي . .

وسواء اهتدى بدرو أخيراً إلى موضع الباب ، أو أنه قد اكتشف مصادفة محركه .

السري ، فالنتيجة أن شقا بان في الجدار ، واستطاع بدرو أن يحرك الباب غير المتظلم المبني في صلب الحائط . . بينا قال كورنيز مرة أخرى :

— يا إلهي ! إنك على حق

ووقف كورنيز ينظر برهة إلى الشارع الخلقى ، وعكف على الباب يفحصه ، ثم

أغلقه بعد أن حدد معاملة بذوب الشمعة التي كانت مع بدرو . . وقال متأملاً :

— والسكب ؟

فاجترأ بدرو على التفسير قائلاً :

— يلوح لي من مظهره أن السارق أطعمه طعاماً دسماً

— إذن فأغلب الظن أنه ليس من الهنود . .

وخص الأقفال المخططة برهة ، ثم أردف :

— إنها كبرت بمبرد . . والهنود لا يعرفون للبارد

وأخذ كورنيز إلى التأمل حيناً . . وأخيراً قال فجأة :

— إنني أكره أن أشفقك يادى فارحاس ، لكن لاشك عندي أن هذا سيكون

قرار مجلس الضباط ، اللهم إلا إذا أعيدت الآلية . . إنها ملك صاحب الجلالة . . وهي

أعني شيء في الكنز المقصود به أن يستأثر برعاية ملك أسبانيا لملكتنا . . وليكن

السارق ما يكون ، فأنت المشغول عما حدث ، لأنك تركت مكانك بغير إذن مني ، ومهدت

السييل لوقوع السرقة .

لم يحرج بدرو جواباً أمام صدق هذا التدليل المنطقي المحكم . . فشعر ببرودة تتعشى

في أطرافه ، بينا قال كورنيز :

— ربما كان في استطاعتك رد الآلية . . وإنني أمهلك لهذا الغرض حتى مساء الغد

ولن أذكر شيئاً عن الحادث حتى هذا الموعد . . لكن موعدنا هو مساء الغد . . مفهوم ؟

— كيف يا صاحب السعادة . . .

— اشحن ذهنك . . هذا شأنك وحدك ، لأن حياتك معلقة عليه . .

في هذه الملاحظة سطع قوس من النور في ذهن بدرو . . ترى هل كانت سخريته اسكوديرو

من نقطة الضعف في جارسيا ، وهي امتناعه عن شرب الخمر ، خطة مدبرة ومنورة

مقصودة ؟ لئن صح هذا فانه من الطبيعي وقد سكر جارسيا أن يشور ويهناج ، وبدهى أنهم في هذه الحالة يلجأون إلى بدرو طلبا لمساعدته ، بل قد يكون الرسول فاريللا قد أوعز إليه باستدعائه .. ثم إن اسكوديرو من أعوان حاكم كوبا وهو مشهور بعذائه لكورتيز .. والمعروف أنه عارض في انسلاخ الجيش عن سلطان كوبا ، كما عارض في الزحف المزمع إلى الجبال في داخلية الاقليم ، واحتج على إرسال الكنز إلى أسبانيا .. وهو يتزعم مع سرمينو حزبا على هذه الشاكلة في الآراء .. وقد يكون بدرو مخطئا في هذه التقديرات ، ولكنه ألفاها في ورطته الحالية أقرب إلى الترجيح والاحتمال .. وقال في النهاية :

— سأبذل جهدي .. أشكر لسعادتك هذه للهلة ..

فقال كورتيز :

— أرجو لك التوفيق ..

— أيمكن أن أطلب مكرمة واحدة ؟

— ما هي ؟

— كل ما أرجو إذا لم أوفق في استرداد اللالىء ولم أستطع تبرئة نفسي ، أن

تسكن القصة عن والدي ..

— لك عندي هذا ..

الفصل السادس

صح عزم بدرو على التسلل إلى مسكن اسكوديرو وسرمينو هذه الليلة لتفتيش متاعهما .. نعم إن هذه المهمة لا تخلو من خطر بالغ .. لكن فيم يخشى الخطر إنسان محكوم عليه بالاعدام ؟

وهكذا ما كاد بدرو يعنى من الحراسة وما كادت صناديق الكنز تنقل إلى قصر كورتيز بناء على أوامره حتى يم بدرو شطر مسكن اسكوديرو وسرمينو ، فصادفه الجندي فاريللا الذي قال له عندما عرف غايته :

— إنك لن تجدكما هذه الليلة .. فقد ذهبا ..

— إلى أين ذهبا ؟ ماذا تعني ؟

فقال فاريللا باسم : اعلمها خشيا أن تحمل عليهما بسبب ما حدث من استفزاز جارسيا ، فضلا الذهاب تلافيا للتعاقب .. إنهما ذهبا إلى فيلاريكا ، قبل هياج جارسيا . فهتف به بدرو ساخطا : لا عزح أيها الرجل .. أين ذهبا ؟

— لست أمزح يا سيدي .. إنهما ذهبا بتصریح من القائد ، في مسألة تتصل بمؤونة الجيش .. وقد حصلنا على الاذن بعد ظهر اليوم ، ولكنهما تخلفا للمشاركة في حفلات المساء ..

— تريد أن تقول إنهما تركا للعسكرات هذه الليلة لكي يسيرا اثني عشر ميلا إلى فيلاريكا ؟

— نعم يا سيدي .. وقد قالا إن السير ليلا أكثر احتمالا ..

والتفت إلى جندي جاء في هذه اللحظة وأردف : هذا (بانشيتو) فساله إن لم تصدقني .. فانه كان قائما بالحراسة عند باب للعسكر ..

وقد أيد الجندي هذه الرواية قائلا : إننا سمعنا لها بالمرور من باب للعسكر ..

— متى ؟ ..

— منذ نحو ساعة ..

راح بدرو يحصى ويقدر .. فإذا هذه الفترة مطابقة لموعده غيابه عن غرفة الكنز وكان أمامهما نصف ساعة للطواف حول ساحة المعبد من الخلف وارتكاب السرقة .. ولا يستطيع أحد اتهامهما بذلك وليس هناك من يعرف بوجود الباب السري .. لكن عودة بدرو قبل الأوان كان فيها مفاجأة لهما ، ولعل في هذا تفسير بقاء الباب السري منفرجا لحسن الحظ ..

إذاذاك استحال الشك في نفس بدرو إلى يقين راسخ .. لكن ذلك لن يقدمه كثيرا .. لأن اسكوديرو وصاحبه لو بقيا في سمبوالا لتنى لبسرو أن يحاول جهده استعادة اللالىء .. لكن فيلاريكا شيء آخر .. وهو الآن حبيس هنا في أرحام للعسكر ، بينما تسبح عشرات الفرص أمام السارقين لاختفاء اللالىء حينا شاءت لهما الحيلة ..

وقد خطر له أن يلجأ إلى كورتيز لكي يأذن له في متابعتها ، لكن بداله ألا فائدة

من هذه الخطوة ، لأن الارتياح الموجه إلى شخصه يحول دون تمكينه من الافلات .. وقد يستطيع طبعاً أن يتهم اسكوديرو وسرمينو وأن يقنع كورتيز بوجوب اعتقالهما وانزع الحقيقة منهما قسراً ولو بالتعذيب .. بيد أن كلا الرجلين له مكانته ، وهما يترعمان الحزب الذي يعتهد كورتيز في استأثله والقضاء على معارضته ، والرجال الذين من هذا الطراز لا يسهل القبض عليهم واستجوابهم كرهأ ، وخصوصاً بناء على اتهام شخص مثل بندرو كل شيء أنه قد نفذ نفسه بما حل به ..

وإذن فلا سبيل أمامه سوى متابعة الرجلين إلى فيلاريكا بغير إذن .. وما دام قد أدين في جرم فلا ضير أن يدين في جرم آخر ، وما خوف الفريق من البلل ؟ .. وإن نجاته على كل حال معلقة باسترداد الآلي ..

وهكذا استقر عزمه على خطة العمل .. فعاد أدراجة إلى للعبد ، وانتهز فرصة انشغال الحرس بنقل صناديق الذهب من غرفة الكنز إلى قصر القائد العام ، فتسلل من الباب السري إلى الشارع الخلق للعبد ، وابتعد مسرعاً في غمار الظلمات دون أن يفتن له الحراس ..

الفصل السابع

لم يمتز طرفة أحد من الهنود وهو يختار المدينة ، بل كانوا يتجنبونه .. وأفضى إلى القاعة ثم إلى المنحدر الساحلي ذي الكشبان الرملية دون أن يصادف أحداً من الرجلين ..

وأشرف أخيراً على فيلاريكا وعلى قلعها المشيدة على الطراز الإسباني .. ولمح في ضوء القمر المنحدر إلى الغيب أشباح سفن الأسطول الاحدى عشرة وهي في مراسيها في البناء الصغير ..

وبينا هو يفكر في الذهاب إلى القلعة والسؤال عن اسكوديرو وصاحبه ، إذ لمح وهو يعتلي أحد الكشبان الرملية أشباح رجال منهمكين في إنزال قارب إلى الماء ..

فلم يتألم أن ركض إلى ناحيتهم بكل قواه وهو محتجب عنهم خلف الكشبان ، حتى إذا صار على بعد أربعين متراً منهم سمع أحدهم يقول لرفاقه الذين كانوا يتولون دفع القارب بين أمواج الشاطئ :

— لا بأس .. دعوا القارب الآن واصعدوا

كان التكام هو سرمينو .. وكان جالساً في مؤخرة القارب مع شخص آخر اسمه اسكوديرو ومالئ رفاقهما الأربعة الباقيون أن قفزوا إلى القارب وأخذوا يحذقون مبتعدين به عن الشاطئ ..

ورآهم بندرو يتجهون بالقارب إلى ناحية السفينة جاليا دون سائر سفن الأسطول ، فلم يأخذ العجب ، لأنه كان يعرف أن هذه السفينة مركز حركة التمرد ، وأغلب رجالها من المتبعين لحزب فيلاسكيز حاكم كوبا ..

ولما ساء بندرو بعد أن بلغ هذا الحد من النجاح أنه لم يجد سبيلاً إلى متابعتهم في البحر قبل أن يغرقوا الآلي .. في مكان السفينة حيث لا يحدى البحث عنها والتقيب وراءها .. ثم إنه لا يجيد السباحة وخاصة في هذه المنطقة للبيئة بوحوش البحر .. وإذن فلم يكن أمامه من سبيل سوى الاعتراف بالعجز والعودة من حيث جاء الملاقاة للصير الذي ينتظره .. أما القرار فتستحيل في هذه البقاع التي لا يقطنها سوى الهنود المحر المتوحشين ..

وبينا هو يسير بين الرمال على غير هدى وقد اسودت الدنيا في عينيه ، إذ اصطدم شيء ، كاد يرض عظامه ، وإذا هو قارب هندي صغير ملقى بين الرمال على الشاطئ .. في شبه عجباً بين الكشبان ، فكاد من شدة الفرح يحن لهذه المعجزة التي هيأت له سبيل الوصول إلى السفينة (جاليا) في أثر قارب اسكوديرو وأصحابه ، ولم يتردد في جر القارب إلى الماء وامتطائه واستخدامه بمخافة على طريقة الهنود في التجديف ، واستعان في ذلك بالصبر والجهد حتى بلغ السفينة جاليا في النهاية .. وبعد أن استراح قليلاً خلع حذاءه وأخذ ينسلق جبل للرساة بكون وحذر .. ولما أطل من فوق حاجز السفينة ولم يشاهد أحداً أمامه ، لم يتردد في الهبوط إلى سطحها ..

وإن هي إلا برهة حتى سرى إلى سمعه صوت حديث وضحك عن كذب صادرين من غرفة الريان .. فيم شطرها .. وسمع من يقول بلهجة صاحبة متقطعة :

— النتيجة أننا سنبحر عند الفجر ..

كان التكام هو اسكوديرو .. وقد استطرد يقول لرفاقه :

— ألا ترون أنهم سيرحبون بنا في كوبا؟ ألا نكون موضع التكريم لدى الحاكم؟
سوف يعرف حين يرانا أننا وحدنا المخلصون الأوفياء ، بعد خيانة كورتيز المخادع
للتفاق .. ثم إننا نستمكنه من الاستيلاء على الغنيمة كلها .. لأنني أراهمكم على أن موتيتجو
سيرجع بسفينة الكنز في طريقه إلى أسبانيا على ميناء (الريان) لكي يزور زوجته ،
وهناك يستطيع الحاكم فيلا سكين محاصرته والاستيلاء على السفينة ومصادرة الكنز ..
والنتيجة أن كلاً منا سينال حصته من الذهب كافية جزيلة .. فدعوا كورتيز ورجاله
الحساسة للغفلين يبحثون عن أمباطوريتهن إن استطاعوا إليها سبيلاً .. وما عليهم لكي
يفوزوا بهذا إلا أن يقهروا مليوناً من الهنود المسلحين ، وبإله من عدد بسيط !
وضحك اسكوديرو ثم استطرد :

— الحق أن كوبا أسهل من هذا مثلاً وأقرب سيلاً .

وقد قول هذا الكلام من جانب زملاء اسكوديرو بالاستحسان ... أما يدرو
فقد شغل عن الآلىء بهذا التهديد الخطير .. فان كورتيز كان يخشى أكثر ما يخشى
أن يبلغ كوبا نبأ استقلال الجيش عن سلطان الحاكم فيلا سكين قبل اعتراف ملك أسبانيا
بشرعية الحملة وتبعيةها لسلطانه .. ولو أن فيلا سكين علم قبل الوقت المناسب أن الحملة
التي جهزها قد خرجت عليه لترتب على هذا تدخل مسلح من جانب كوبا وإراقة الدماء
وافساد كل ما تم حتى الآن من أعمال .. يضاف إلى هذا أن إبحار سفينة (جاليا) لا يعنى
فقط ضياع الآلىء الغنيمة ، بل كذلك ضياع سفينة الكنز بما تحمل من ثمار هذه الحملة ،
وفي ضياع الذهب المرسل إلى ملك أسبانيا ضياع اعترافه بالحملة ولا ريب .

وما لبث يدرو أن أفاق من خواطره على أثر سؤال ألقاه أحدهم على اسكوديرو :
— لكن كيف تأتي أنك لم تستطع أن تحضر لنا معك عينة من الكنز؟ سمعاً
منك قبل الآن أن أحد كهنة العبد أراك باباً سريراً في غرفة الكنز .. أفلم يتحرك
هذا الباب ، أم ماذا؟

أدرك يدرو من هذا أن اسكوديرو وصاحبه أخفيا الآلىء عن زملائهما ، وقد
سمعه اسكوديرو يحجب بقوله :

— الحقيقة أننا بذلنا جهدنا ... لكننا لم نتبع لأن يدرو دى فارجاس كان

يتولى الحراسة .. ولم نستطع إبعاده من مكانه رغم محاولاتنا في هذا الشأن .
وانبرى سرمينو لتعزيز أقوال شريكه اسكوديرو في هذا الاختلاق الذي لم يقنع
زملاءهما كل الانفعال .. على أن يدرو لم يكن يعنيه شيء من هذا ، وإنما انغصر همه الآن
في العودة إلى الشاطئ . لا بلاغ اسكولاني قائد حامية القلعة وهو من رجال كورتيز
المخلصين حتى يتخذ الاجراءات التي تحول دون إبحار السفينة جالياً ومن عليها من
الرجال للمتمردين التآمرين .. بيد أنه لم يكذب يتحرك خطوة حتى سمع من خلفه متكلماً
يقول بلهجة الدهشة : من هذا؟ ..

وقد حاول يدرو أن يتسلك مبتعداً عن مصدر صوت للتكلم ، لكنه ألقى نفسه
في قبضة ذراعين من حديد ، وفي عمرة الصراع الصامت الذي دار برهة قصيرة في
الظلام فوق السلم الضيق الذي وقف فوقه يدرو ، ما لبث الاثنان أن سقطا متدحرجين
واستقرا عند أقدام اسكوديرو وأصحابه .. ولم يكذب يدرو يشب قائماً حتى أحاطت به
الحناجر إحاطة السوار بالمعصم ، وصاح أحدهم :

— يدرو دى فارجاس ! يا للشيطان !

وامتدت إليه الأيدي تقيد ذراعيه من خلف وتترزع سيفه وخنجره ، وتقدم نحوه
اسكوديرو يريد أن يغمد خنجره في صدره طالباً اليهم أن يدعوا له لذة الاجهاز عليه ،
لولا أن اعترضه كوريا الضخم البدن الذي كان مسموع الكلمة بين زملائه . قائلاً :
— لا لزوم للعجلة .. قف مكانك .. لنسمع أولاً دفاعه عن نفسه .

فاستجد اسكوديرو بشريكه سرمينو الذي هجم على يدرو وخنجره ، ولكن الأيدي
حالت دونه كما فعلت بصاحبه من قبل ..

وكان يدرو في خلال ذلك يقده زناد فسكره بسرعة البرق ، فأدرك سبب تعجل
الشريكين للقضاء عليه والتخلص منه ، ولذلك ضرب ضربته قائلاً :

— أشكركم أيها الأخوان .. قبل أن تتركوا هذين السيدين يتان قتلى سلوفا
ماذا فعلاً بالآلىء التي أخذها من غرفة الكنز هذه الليلة؟

خيم على الجميع صمت عميق .. وشخصت الاعين إلى اسكوديرو وسرمينو .. وما لبث
أولهما أن ضحك قائلاً :

— أتصدقون مفتريات جاسوس كورتيز ؟ لكم أن تفتشونا ، فإن وجدتم معنا لؤلؤة واحدة كان لكم أن تفعلوا ما تشاءون !
 لكن بدرو لم يتزعزع إيمانه بوجود الآلىء مع أحد الصين . . وقال وقد تذكر أسلوبا يتبعه اللصوص في إخفاء السروقات :
 — لا تصدقوها . . إن الآلىء في حوزة أحدهما . . ولكم أن تبدأوا التفتيش بالحذاء . .
 وهنا تدخل كوريا مؤمنا على كلام بدرو قائلا : صدق والله ! وفي هذا تفسير محاولتهما الاسراع بقتل دى فارجاس ! أقسم أيها الزملاء أننا سنفتشها حتى الجلاء !
 وهكذا لم يستطع اسكوديرو مكابرة ، فضحك وراح يقول بعد أن رمى بدرو بنظرة مفترسة قاتلة :

— أخراك الله يا كوريا . . ألا تؤمن بالمزاح ؟ إلى وسرمنو كنا نداعب ونمزح ، وقد خطر لنا أن نقاچتكم قبل وصولنا إلى سنجاجو . . إن معنا أيها الأبله أجمل حمس لآلىء في الدنيا كان كورتيز الثعلب ينوى إرسالها لملك أسيايا . . وقبعتها لانقل عن عشرة آلاف من الجنيتات ! مارأيكم في هذه الصفقة ؟ ألف جنيه لكل واحد منا !
 وكان الشقي بارعا في مناورته وحسن تخلصه ، لكنه قبول منهم بالصمت والاستنكار وتصاعدت الأصوات تطلب إرزاز الآلىء ، فززع اسكوديرو وسرمنو حذاءيهما وأخرجاها من تجويف في ثعل الكعيبين وهما يتكلمان الضحك ماوسعهما التكاف . . وأدبرت عليهم الآلىء يستعرضونها ويملاؤن الأعين من سناها . . وانتقلوا بعد ذلك إلى مشكلة للكان الذى يحفظونها فيه ، فاقترح كوريا وضعها في الصندوق وإلقاء مفتاحه في البحر ، فأخذ على الفور باقتراحه ، ووضع كوريا الآلىء في الصندوق أمام أعينهم جميعا ، وأغلق الصندوق ، وألقى المفتاح في البحر ، ثم أردف قائلا :

— سيفتح هذا الصندوق بحضورنا جميعا متى وصلنا إلى سنجاجو . . ولن يستطيع أحدا أن يغتصبه خلسة ولا تنهبنا إلى الصوت وهجمنا عليه هجمة رجل واحد . .
 والتفتوا بعد ذلك إلى بدرو بعد أن تسوه حينما ، فقال اسكوديرو إنه لا مانع الآن من القضاء على جاسوس كورتيز . . فقال لهم بدرو متجلداً :
 — وكيف تتخلصون من أيها السادة ولولاى لما ضمنتم عشرة آلاف جنيه عنخوطة لأن في هذا الصندوق ؟

كان الكلام مقنعاً وقد راق بعضهم ، لكن كوريا هز رأسه قائلا :
 — لكننا لا نستطيع أن ندعك تنزل إلى الشاطئ . وإلا شعر كورتيز بما نديره وتعرضت حياتنا للخطر . .

فقال بدرو بجرأة عظيمة : لكنى إذا عدت بغير الآلىء إلى كورتيز فأنا هالاه لا محالة . . ولعلك فأتى معكم تحت لواء الحاكم فيلاسكيز . .
 وقد حاول اسكوديرو أن يشكك في نية بدرو قائلا إنه يفرر بهم وأنه سينتزع أول فرصة تسع له للوثوب إلى البحر والعودة إلى كورتيز للإبلاغ عما حدث وشراء نجاة بهذا الثمن ، لولا أن فتد بدرو اعتراضه قائلا : إن كنتم تشكون في قولى أيها السادة فان تقييدى بالسلاسل سيحول دون أفلاقي حتى تبعد السفينة عن البناء . .

لم يجذوا ما يعرضون به . . وهكذا قيدت بدا بدرو . . وقد عاجل في أثناء تقييده أن ينظر إلى عيني كوريا وأن يوحى إليه معنى خاصا لما توسم فيه دون الآخرين من صلاحية لتنفيذ خطته . . ولما تشاوروا بعد ذلك أين يتركونه استقر الرأى على أن يعصى الساعات القليلة اليسافية على إبحار السفينة في حجرة الريان مع الصندوق ، وكان هذا رأى كوريا الذى قال إن الأسير المقيّد هو ولا ربب خير حارس للآلىء ، ثم انقضوا إلى مختلف نواحي السفينة للنوم ، وبقي بدرو وحده في الظلام . .

وظل بدرو أكثر من ساعة فريسة لأقصى الهواجس وهو عاجز عن التخلص من قيوده حتى قاد يقظ من غجاج الحطة الوحيدة التى علق عليها كل آماله . . وإنه لكذلك إذ سمع حركة يسرة ، فظن القادم اسكوديرو جاء للقضاء عليه ، ولكنه نظر في ضوء السباح للظلال الذى حمله القادم ، فاذا هو كوريا ، الذى قال له همساً :
 — أنظرك كنت تريد أن تبغى شيئا . . ليس أمامنا وقت . . فقل ماذا تريد . .

الفصل الثامن

لم يضع بدرو الوقت في مقدمات ، بل طرق صميم الموضوع قائلا لكوريا :
 — هل تظن بعد أن تخلفت مع زملائك عن الحلة أنك ستجد الثمن والثروة في كوبا ؟
 فأجاب كوريا باسم : سوف نرى . .
 فقال بدرو : ليس في كوبا سوق لبيع الآلىء . . ثم ماذا يكون الموقف إذا وشى بكم اسكوديرو لى الحاكم وصادر هذه الآلىء ؟

وسرعان ما تلاشت الابتسامة ، وقال كوريا مزججراً : ما الذى ترمى اليه ؟
 — أريد أن أقول إنك لست من البلاء للعقلين ... لا أمل لك في كوبا ...
 ما الذى يقيدك هؤلاء الخونة على ظهر السفينة ، في حين إن بإمكانى أن أريك السبيل
 إلى عطف كورتيز وإلى كسب خمسمائة جنيه ؟
 فقال كوريا وهو يبحث بذقنه : وفي مقابل أى شيء تفعل هذا ؟
 — مساعدتى في وقت إبحار السفينة جالياً ..
 — فهمت قصدك .. بهذا يسترد كورتيز اللآلىء .. وتسترد أنت عطفه .. وأنت
 الكفاة .. لكن من يدفعها ؟
 — القائد العام الجنرال كورتيز . فانه يضحى بكل شيء لمنع تسرب الأنباء إلى كوبا
 — ومن يضمن لى الدفع ؟
 — أقسم لك بشرى .. هل سمعت بوالدى ؟ أقسم لك بشرفه على ما أقول .
 لبث كوبا برهة متردداً .. ثم قال أخيراً : اتفقنا ...
 وأخرج مفتاحاً فكه به قيود بدرو وجاءه بسيفه وخنجره من ركن الترفة ،
 وقال له أخيراً : والآن ما هي خطتك ؟
 — سنمزق أكثر ما نستطيع من قلوب السفينة ، ونعظم البوصلة .. وإذا أمكننا
 تأخير إبحار السفينة ساعة واحدة تغلبنا عليهم حتماً ... ومتى رأيناهم يهاجمونا أسرعنا
 إلى قارب السفينة وذهبتا به .. هل أنت على استعداد ؟
 فقال كوريا : بحسن أن نأخذ اللآلىء معنا ..
 — ليس أمامنا وقت لكسر الصندوق .. ثم إن الصوت سيوقفهم ..
 — لكننا لن نضطر لكسره .
 وشد ما كان ذهول بدرو حين أخرج كوريا من جيبه مفتاح الصندوق الذى رآه
 بقلبي به في البحر وفتح به .. وقال بدرو : لكنى كنت أظن ...
 فقال كوريا باسمًا :
 — الحقيقة أنى رمت في البحر مفتاحاً آخر غير المفتاح الحقيقى الذى احتفظت به
 وأخرج اللآلىء الحسن وقدمها إلى بدرو قائلاً :
 — إنشد طرسها الأصلى ... وهى بديمة ولكن لا قيمة لها عند رجل فقير مثلى ..

وقد أحسنت حين قلت إنه لا سوق لها في جزائر المحيط ..
 ووضع بدرو اللآلىء في جيب حزامه وشد عليها وهو لا يكاد يصدق أنه استردها
 واستحوذ عليها أخيراً .. ولم يبق أمامه الآن سوى إعادتها إلى كورتيز .. ولكن لا بد
 قبل بلوغ هذه المرحلة من مخاطر محققة ومحاولات رهيبية ..
 وألقى أن بدرو لم يكن في تقديراته .. وكانت أولى المخاطر التى عرضت لها
 هى التغلب على البحار الذى كان يقوم بالحراسة على ظهر السفينة العلوى ، ولكن الرجل
 كان في شبه نعاس ، ولذلك تسلل إلى ناحيته في سكون ، وتجاهله بدرو بطمئة من خنجره
 فهوى بين يدي كوريا الذى أرقده في خفة حتى لا يوقظ زملاءه النيام ..
 واتهمك كوريا في تمزيق القلوب وقطع الحبال .. وقصد بدرو إلى مكان البوصلة
 حيث حطمتها تحطياً بغاس وجده .. ولكن ذلك كله ما كان ليتم دون إيقاف التأميرين
 الذين تقاطروا إلى مكانهما صاحبين لاعنين .. فقال بدرو لصاحبه : كفى ما فعلت .. أسرع
 إلى القارب .. أما أنا فسأعترضهم ما استطعت .. عليك أن تتأدبني متى صرت في القارب .
 فأسرع كوريا ممثلاً إلى حيث كان القارب ، ووقف بدرو شاهراً سيفه يسد المهاجمين
 وعلى رأسهم اسكوديرو ويخنهم جراحاً ، وكان له من الظلام ومن عنصر المفاجأة ما سهل
 مهمته إلى حد لا بأس به .. لكنهم أخذوا يشكثون عليه .. فلما سمع من تحته صوت
 كوريا يناديه وهو يستقر في القارب ، وثب من فوق حاجز السفينة وثبه يارعة مفاجئة
 سقط على أثرها في البحر .. حتى إذا ارتفع إلى سطح اللاء سبح قليلاً وأدرك القارب
 وصعد إليه بمساعدة كوريا ، وفي اللحظة التالية أعمل كوريا المجداف مجد ونشاط .
 وانبرى بدرو لمساعدة صاحبه في التجديف حين سكنت أصوات الصراخ والمرج
 فوق سطح السفينة ، وشوهد شبحان عند الحاجز في ضوء الفجر المشاحب يحمل أحدهما
 القوس والسهام وهى سلاح خطر يمثى يعمل من في القارب هدفاً طيباً في مثل هذه
 السافة الوجيزة بينه وبين السفينة ..
 وفي الحق لم ترض إلا هنيهة حتى شعر بدرو بألم حاد في ساقه .. وفي اللحظة التالية
 ألقي نفسه في قاع القارب يتلوى من ألم عنيف في رأسه ، واسودت الدنيا في عينيه ،
 وكاد يغمى عليه ، لولا أنه بذل جهد الجسارة للتغلب على نوبة الدوار التى تملكته
 ثم انبعثت من ناحية السفينة أصوات من لون آخر .. فقد أخذ أصحاب السفينة

في إلقاء قارب آخر أصغر حجماً يطاردون به الهاربين .. وهنا تحامل بدرو على نفسه وتلس الجذاف لمساعدة كوريا وهو لا يرى شيئاً بسبب الدم الذي كان ينزف من جبينه وأخذ كلاهما يجذف مستمتماً وهما موقنان ألا قائدة من هذه المحاولة إزاء قارب به ثمانية رجال موتورين .. ولكن حدث فجأة ما لم يكن في الحسبان .. فقد شوهدت عجائز القارب للطارد وهي تكف عن الحركة ، ثم تدور في الماء بحركة عكسية .. ورئى اسكوديرو وهو يلتفت إلى ناحية اليمين ويصدر لرجاله أمراً أخذ القارب على أثره يستدير لتغير وجهته .. وفي اللحظة التالية ظهر قارب آخر مملوء بالرجال يدنو مسرعاً ، فتخلى كوريا عن الجذافين وهتف مسبحاً : تبارك الله العظيم .. !

وعرف بدرو في مؤخرة القارب القادم (أنطون ألامينوس) كبير ملاحى كورتيز .. وقد صاح هذا على الفور : ماذا هناك ؟
فرد بدرو وهو يتثبت بحافة القارب إعياء :

— امنعوا السفينة (جاليا) من الانحمار .. أخطروا باقى السفن ..
لكنه لم يتم يانه ... فقد هوى في قاع القارب غائبا عن الصواب ...

الفصل التاسع

بينما كانت السفينة (جاليا) تجرد من أشرعتها لتعجز عن الانحمار ، وبينما كانت بحارها يتناولون بالجملة ، وبينما ذهب (كوريا) يسابق الريح على ظهر جواد قاصداً إبلاغ (كورتيز) ما تم ضمانا لمكافأته للعودة ، وبينما انعقد مجلس الضباط في مدينة (ميمبولا) للنظر في حادث التمرد هذا واتخاذ الوسائل التي تكفل عدم تكراره بين رجال الحملة وغيرهم من بحارة السفن الأخرى ، بينما كان هذا كله يدور على قدم وساق ، كان بدرو دى فارجاس ممدداً في قلعة (فيلاريكا) وهو بين الموت والحياة ، وإن كان إلى الموت أقرب ...

ومن حسن حظ بدرو أن (أنطونيو سكويار) طبيب وجراح وصيدلى الحملة كان قد تخلف في (فيلاريكا) بسبب حمى الحصبة وكان في دور النقاهة منها ، ولذلك دعى لتقديم مساعداته الفنية إلى ياؤز القائد العام للجريح ... ولم يكن من عادة الأطباء في ذلك الزمن أن يلتزموا بالتناول بسدد حالة مرضاهم ... فان كانت العلة يسيرة نالوا بإبرائها الديح والاطراء .. وإذا قضى نجبه فذلك مشيئة الله ..

وما كاد سكويار يلقي نظرة على بدرو وهو ممدد فوق حصير هندي في ركن من القلعة مظلل بأغصان النخيل حتى شفق وعبس ... وزاد شيقاً وعبوساً حين غص بأظافره الطويلة المرح العميق الفائز في حجمة (بدرو) ، وقال في النهاية لاثنتين من نساء الحملة كانتا تذودان أسراب الدباب للتنشر في كل مكان : اللون لون اللوت ... والعرق بارد ... هذه غلامات لا تبشر بخير ... ليت الأب (أوليدو) كان هنا ... أخشى أن هذا الشاب للسكين لن تسغه براعة بنى الانسان ...

وسرمان ما جاوبه صوت صارم دخل صاحبه من الباب قائلاً : الله يرحمك يا حضرة الطبيب الجراح إذا لم تبذل كل جهدك أو إذا أصابه مكروه ! ...
كان القادم هو (اسكلانتي) قائد حامية (فيلاريكا) ، وقد دلف واضعاً يديه في خاصرته واستطرد يقول وهو يلثم (سكويار) بنظراته : تحرك يارجل وقم بواجبك ! ... أوقف نزف الدم ! ... كان يجب أن تفعل هذا قوفاً دون ثثرة ! ...

وكان هذا التعنيف حافزاً للطبيب الجراح على العمل ... فصاح بأعلى صوته ينادي (شافيز) ، وهو عملاق يستطيع بقوته الهرقية أن يسمر أى مريض فوق منضدة العمليات ... وكان المساعد الفاضل ينظف إسطل الحيل في تلك اللحظة ، فلما لبث أن ظهر بمسح يديه في سرواله ... وفي هذه الاثناء جاءت للرائتان بموقد من نحاس (وملئة) وقضيين من حديد وإناء قطران ... واكمل هذا الاستعداد الفريد بخوان غليظ خشن ... ولما لبث شافيز أن رفع الجريح بين ذراعيه وأهوى به على الحوان وفي تلك اللحظة تقاتر كثيرون من أفراد الحامية وبعض الهنود للفرجة ... ذلك وقد استعرت الشمس وأرسلت من أشعتها شواظاً من نار ، وفاض السكان الضيق بأسراب الدباب ولطم الحديث ...

وأصدر الطبيب الجراح أوامره إلى مساعده قائلاً :

— اخلع سترته وقبضه تليقاً لحرارته .. وعلى كل حال فقد لا يحتاج إلىهما بعد .. وفي هذا الجو اللروع ثاب بدرو إلى نقطة المغموم ، فسكانت حرارة النار ، وتمردة من الثياب إلى وسطه ، وما حوله من الوجوه المحيطة به ، وسحنة شافيز للمائلة فوقه ، ومشهد سكويار وقد أمسك في تلك اللحظة بالقشيب الحمى يتصق عليه لاختبار درجة لظاءه ، كان كل أولئك أقرب إلى صورة من صور الجحيم .. وقد حاول أن يتهنئ على ضعفه ، بيد أن يد شافيز الجبارة ردت به إلى مكانه فوق الحوان الغليظ الخشن قائلاً :

— صبراً يا سيد ! .. لم تنته منك بعد .. انا سنكوى رأسك فقط ..

وقال اسكلانتى يخفف عنه فكان كمن يصب الزيت على النار :

— تشجع يادى فرجاس ! .. لا بد من وقف النزيف وإلا كان للوث ! .. سوف

نشفيك حتى ولو أحرقنا رأسك ! ..

فقال بدرو متحبطاً بين أيديهم ورأسه يدور ويضطرب :

— رباه ! .. ماذا فعلت حتى تحرقونى ؟ .. فقال الطبيب سكوبار :

— إنه يهدى ويغرف ! .. هذه علامة سيئة .. هل غلى القطران ؟ .. جميل ..

والتي نظرة فاحصة على القضيبي الذى ابيض من الحرارة وقال : إلى العمل ..

وأمسك اسكلانتى بأحد معصمى بدرو ولواه، وأمسك أحد المتفرجين بالمعصم الثانى، وأما شافير فقد عكف على ساقيه وسمرها فوق الحوان تسميراً .

وقال سكوبار الطبيب الجراح :

— ليمسك أحدكم بحلقه ، وليثبت رأسه ، وإلا تحرك وأفسد علينا العملية ..

فتطوع جندى بهذه المهمة .. وما لبث الجراح أن رفع القضيبي للتدق وأطبقه على الجرح الذى فى رأس بدرو ، ولكن حركة الرأس التشنجية جعلته يغطى موضع الجرح ، فارتفعت صرخة وانبعث رائحة شعر محترق .. وأعيدت الكرة ، فلم تكن بأحسن من سابقتها ..

وصاح اسكلانتى من فرط الغيظ وهو يتصب عرقاً : يا للقديسين ! .. لو لم أكن

ممسكاً بمعصمه أيها الجراح للتعود لأعمدت هذا القضيبي فى جمجمتك ! ..

فعاود سكوبار الكرة وقد أطبق شفتيه ، واستطاع هذه المرة أن يمس القضيبي المحمي للتدق بين شق الجرح فى رأس بدرو ..

وسرعان ما تصاعدت منه صرخة مدوية رهيبية ، مقترنة بتشنج الشم .. وفى اللحظة التالية همدت حركته ..

وقال شافير مساعد الجراح وهو يتخلى عن القريسة ويمسح جبينه بكفه :

— لقد انتهى ، عليه رحمة الله ! .. انظروا إليه ! ..

وفى الحق أن وجه المريض قد امتنع امتناع اللوث .. ولم يتالك بعض الجنود

الحاضرين أن رسموا علامة الصليب .. وقال الطبيب الجراح العبقري :

— إنك لم تصدقنى ولم تأخذ برأى أيها الكابتن .. إن على لا يمكن أن يدفع

إرادة الله .. وعلى أى حال فقد استطعنا وقف النزيف .. وعليكم أن تعترفوا بأن

الجرح قد أحكم لحامه ! ..

وكان اسكلانتى قد وضع يده على قلب بدرو ووقف برهة مضطرباً جازعاً .. وما

لبث أن هتف مهتلاً الأسارير : كلا وحق القديسين ! .. إنه حتى أكثر منك ! ..

وسرعان ما انتهز الطبيب الجراح الفرصة قائلاً : ولم لا ؟ .. إن الله يهب عوناً للإنسان

المجرب ذى العلم الصحيح . ولا تخشع يا سيدى الكابتن أن كل إنسان يستطيع أن يضع

قضيئاً عجمياً فى جرح مفتوح .. فان توقيت هذه الحركة بعد بأنصاف الثوانى .. ولو آتى

رفت القضيبي قبل اللحظة المناسبة لما تم لحام الجرح .. ولو آتى تركته فى الجرح أكثر

فما ينبغي لقضى المريض نجه .. اعلم أيها الكابتن رعاك الله أن مادة اللخ السائلة تعلى

بسهولة ، وحالما تصل إلى درجة الغليان فان

الكن اسكلانتى قاطعه قائلاً :

— كفى ! لك ما تقول .. شافير ! .. على بعض النيذ الهندي .. إن هذا الشراب

يجب اللوق .. إنا سنوقفه به أيها الجراح المهام ، ثم تتولى أنت وضع القطران فى الجرح

وهكذا كان .. وختم على الجرح بالقطران الغلى .. ولتصور القارىء تلك الصرخة

الروعة للؤثرة التى انبعثت من بدرو للسكين ، فانها بما يعجز عنه كل بيان

وبعد أن ضمد الجرح بقطعة من ذيل قيص اسكلانتى ، أعيد الجرح ثانية إلى

الحصير الهندي حيث مدد فوقه .. وقال الطبيب الجراح محتفظاً لنفسه بخط الرجعة :

— هو الآن بخير ، اللهم إلا إنا مات من الضعف وتأثير الصدمة ..

الفصل العاشر

استيقظ بدرو عسراً ، فأكاد يفتح عينيه حتى ألقى جوان جارسيا فوق رأسه يهز

مروحة عريضة وقد امتلأت عيناه بالدموع واختلجت شفتاه على نحو مؤثر

ولما حاول بدرو الكلام همس جارسيا يقول وقد وضع أصبعه على شفتيه :

— صه ! .. صه ! .. لاتكلم بالله ، وسيكون كل شيء على مايرام .. إني جئت الآن

من عند الطبيب سكوبار ، وقد أبلغنى أن حياتك تتوقف على التزام الهدوء ..

— بل ان حياتي تتوقف على البعد عن هذا الطبيب الجهنمي .. إني بخير.. ماذا بك؟
أهو صداع .. كيف جئت إلى هنا؟
فراح جارسيا يتوسل إلى بدرو أن يلتم الصمت ، وتولى هو اليان قائلاً إنه حين
أفاق من سكرته وعلم ما كان منه ، تملكه الحجل واليأس حتى كاد يقتل نفسه .. وكان
للعسكر في هرج ومرج بعد ذهاب بدرو ، وكورتيز في أشد السخط .. وظل الحال
كذلك حتى جاء كوربا بأبناء التطورات التي حدثت في فيلاريكا ، وعرف أن بدرو في
حالة الموت .. هنالك كاد يخن جنون جارسيا حتى ذهب يضرب رأسه بالجدران ، وكاد
يقضي على نفسه لولا أن جاء كورتيز وأمره أن يسرع بأحد الجياد إلى فيلاريكا لعله
يجد بدرو على قيد الحياة ، وكلفه بحمل رسالة منه إلى الكابتن اسكلانتى ، وأبلغه أن
الجيش عائد إلى فيلاريكا في الغد

ثم اختتم جارسيا حديثه قائلاً في لهجة مؤثرة :

— والآن هل تصفح عني أيها الصديق؟ إني السبب في كل هذا بسكرتي اللعينة أقسم
لك أتى لن أمتدق الخمر في حياتي .. والويل كل الويل لمن يحسر يوماً على إغرائى بالشراب
فقال بدرو باسمياً : إني صفحت عنك على هذا الشرط ..

وفي هذه اللحظة جاء الكابتن اسكلانتى قائد حامية فيلاريكا ، وكان معه جنس
الأوراق .. فلما اطمان على صحة الجرح راح يقول :

— لا بد أن كوربا أبلغ القائد العام خبراً سيئاً عن حالتك ، فانه يعتقد أنك على
وشك الموت .. لكننى وسكوبار قد نجحنا والحمد لله

ولوح بالورق الذى معه واستطرد :

— اليكم الأنباء .. إن سفينة من كوبا بقيادة فرنسكو سلسيدو رست في سان
أولوا منذ فترة قصيرة ، وهى الآن في طريقها إلى هنا ، كما علم كورتيز من أحد العدائين
وقد تصل السفينة غداً ، وفيها بعض الجنود والخيل ، ولكن الجانب السيئ في هذه
الأنباء هو تعيين حاكم كوبا حاكماً عاماً من قبل أسبانيا ، وقد دخل استعمار هذه الأراضي
فلاح الاستياء على بدرو وجارسيا لدى سماع هذا النبأ .. لأنه إذا صح أن فيلاسكينز
قد دخل هذه السلطة ، فمعنى ذلك أنه لم يبق لهم من حقوق كفتاعين إلا العمل تحت

أمرته ، ومعناه أن مستعمرة فيلاريكا الجديدة ليس لها وجود قانوني ، كما أن معناه
أن فيلاسكينز سيفوز من كافة للقائم بنصيب الأسد ..

وقال بدرو في هذا الصدد : إن القائد العام لن يقابل هذا بالسكوت والامتنال ..
صاقد اسكلانتى على هذا قائلاً :

— هو ذاك ... وستتطور الأمور تطوراً سريعاً منذ الآن .. ولا بد أولاً من
إبحار سفينة الكثر إلى اسبانيا حالا ، على ألا تبحر بعدها سفينة أخرى حتى نستولى
على الأقليم كله باسم الملك .. نعم ! باسم الملك ، لا باسم هذا الحاكم للتسول فيلاسكينز
ثم أردف اسكلانتى مخاطباً بدرو : إنك ضربت ضربة موفقة ليلة أمس ..
لكن لا يمكننا أن نتمد على الحظ في كل وقت .. فقد تبحر سفينة أخرى غير جاليا .
فقال بدرو وقد خطر له خاطر : لنفرض أنه لا توجد لدينا سفن ؟ ..

فردد اسكلانتى الكلام وقد أدرك المراد : نعم .. لنفرض أنه لا توجد لدينا سفن ...
وصاح جارسيا حين فهم بدوره :

— صدقتم والله ! إن من لا يستطيع التراجع لا بد له من التقدم ! وبيننا كثيرون
يحبون أن يتراجعوا ، فان بخارة السفينة جاليا ليسوا هم وحدهم للمتمردين ؟ .. نعم ...
هذه فكرة عظيمة .. لنفرض سفتنا ! ولنقض على روح الهزيمة والتراجع !

فقال اسكلانتى وهو ينظر إلى بدرو نظرة معنوية :

— لنشر هذه الفكرة .. ولننظر ماذا يقول الرجال في صدها ..

فصاح جارسيا وله بين عامة أفراد الحلة شهرة عظيمة :

— ماذا يقولون ؟ إنهم سيرحبون بها ... لنعرضها على القائد العام !

والتفت جارسيا إلى اسكلانتى وأردف :

— أشرت هذه الفكرة بين الضباط .. أما أنا فسوف أتكفل بالجنود ..

فوعد اسكلانتى بذلك .. ثم قال إنه تذكر شيئاً .. وقدم إلى بدرو رسالة مختومة

قال إنها من عند القائد العام ، وإنه يعرف مضمونها .. ففرضا بدرو بأصابع مرتعشة ،

وأخذ يطالعها وهو هدف لشق للشاعر .

استهلها كورتيز بالإشارة إلى قصة مغامرة بدرو كما وقف عليها من كوربا ، ثم

استطرد يقول :

« وأما بخصوص الآلىء ، فقد بلغنى أنك استمدتها وإن اسكلاننى أخذها من حزامك أثناء انغمائك واحتفظ بها لحين عودتى ، وهكذا كفرت عن غلطتك .. وإنى قد عفوت عنك لخروجك من المعسكر ليلة أمس بغير تصرع ، بالنسبة للنتائج الناجمة التى حققتها .. ولو أنك قد أخفقت لكان مصيرك الاعدام شقياً .. أما وقد نجحت على صورة فيها كل الخير للأحبة ، فقد رفقتك إلى رتبة كابتن فرقة الاستطلاع ، وأرجو لك عاجل الشفاء ، لأننا زاحفون عما قريب » ..

فلم يكذب بدرو قراءة الرسالة حتى هتف : تباركت ياربى !
فقال جارسيا بلهجة القلق : تكلم ! قل ! ماذا دهالك ؟

فقال اسكلاننى وهو ينحن أمام بدرو : خالص التهانى !
وهتف بدرو وهو لا يكاد يصدق ما قرأه : أنا كابتن ! كابتن ! الحمد لله حمداً جزيئاً !
الفصل الحادى عشر

استيقظ بدرو فى صباح الغد على صوت قصف المدافع صادراً من ناحية الميناء ، خيل إليه أن الحملة قد اشتبكت فى حرب مع الهنود الحمر ، بيد أنه ما لبث أن تذكر ، فهذه تحية السفينة القادمة من كوبا ..

وكان بدرو فى حالة من الضعف والاعياء شديدة بتأثير ما نرف منه من دماء ... بيد أنه تحامل على نفسه وسار مهتماً متايلاً إلى فجوة الجدار ونظر منها ، فصح تقديره وإذا السفينة فى الميناء يرفرف عليها العلم الاسباني ، وقد احتشد على الشاطئ خلق كثير يستقبلون القادمين ، وبينهم جارسيا واسكلاننى .

كانت ساعة حافلة بعد غياب خمسة أشهر كاملة عن أرض الوطن ، وقد ود بدرو من كل قلبه لو أتيح له أن يشترك فى استقبال القادمين ، لعله يتلقى منهم أنباء من جايين مسقط رأسه الحبيب ، ولعله يعرف ما كان من أمر أبويه .. لكن لم يسمع وهو فى ضعفه هذا إلا أن ينتظر عودة جارسيا لكي يتسقط منه ما يتوق إليه من أنباء

وبعد انتظار طال مدهاء وضافت به نفسه ، أقبل عليه فتى يرتدى السواد وقد وضع على رأسه قلنسوة بها ريشة بيضاء ... فلم يكذب بدرو يرى القادم حتى حملق فى وجهه مشدوها وقد خيل إليه أنه أصيب بالجنال من تأثير ما نرف من دمه ... ولما رأى الفتى يدنو منه وهو يتسم ابتسامة عذبة عرفها فى الماضى حتى المعرفة ، همس قائلاً :

— رحماك ياربى ! لا شك إنى أحلم ! .. (كاتانا) ... (كاتانا بيريز) ...
— ألم تعرفنى حقاً ؟ ..

وتهاكت بجانبه وما فتىء يحملق إليها مأخوذاً فاغر الفم ، قائلاً :

— يا آله السموات ! ... كاتانا ! ... جيتى ! ..

وقبلها فى ثغرها مرات وهو يلتمسها بعينه التهاماً ... فقالت وهى تمر يدها فى رفق على وجهه : إنك تغيرت ! زدت سمرة ونحولاً ! .. ولك لحية ! .. ومجروح ! ..
إنى سأعنى بك ...

فاحتضنها قائلاً : ما أنت من عالم الحقيقة يا (كاتانا) ! .. تقولين إنى تغيرت أنظرى إلى نفسك ! ..

وفى الحقى أن الفتاة زادت سمرة بدورها ، وقصت شعرها فقعدت كالفتيان ...
أما هو فراح يعطرها بالأسئلة قائلاً :

— لكن كيف حدث هذا ؟ متى ركبك البحر ؟ .. وأين (هرنان سولر) ؟ ..
— مات إنه أساء معاملتى ... فقتلته ...

كان بدرو يعرف طبع (كاتانا) ولذلك لم يدهشه تصرعها ... على أنه قال لها :
— وماذا حدث بعد ذلك ؟ ..

— ذهبت مع أخى ماتويل ... ولما وصلنا إلى ميناء (سانلوكار) ممنعان رحيلك مع السنيور جارسيا إلى الجزائر ...

وأردفت قائلة إنها وشقيقها ركبا البحر مع أسطول الريع ، وفى كوبا علما أن سفينة تجهز تحت أمره سلسيدو للحاق بكورتيز ، فانضمت إليها مع أخيها ، كنتطوعين وأنه ليسعدهما الآن أن تقاسم بدرو حياته ، وأن تسير معه جنباً إلى جنب فى الزحف الوشيك .. فقال بدرو وهو يضمها إلى صدره : هل تدركين مغزى هذه المشاركة ؟ ..

ولما جاء الجواب من عينيها ، أردف فى حمية :

— الويل لكل من ينسى أنك لى وحدى ! ..

وبعد برهة تخلصت منه ووقفت قائلة :

— عندى لك أنباء طيبة . فقد وصلت إلى ميناء سانلوكار قبل إبحارنا سفينة عائدة من جنوا ... وتصادف أنها كانت نفس السفينة التى حملت والدك دون فرنسكو

ووالدتك دون ماريا إلى إيطاليا ... وقد قال الربان إنهما وصلا إلى جنوا في أمان وأنه علم قبل أنبحاره منها أنهما استقبلا بالحفاوة من أقارب السيدة والدتك ، في مدينة فلورنسا فلم يتألك بدرو أن هتف مبتهجا ... فقد لبث طيلة عام كامل يساوره الخوف من أن يكون أبواه قد هجرا عن بلوغ إيطاليا ... وقال بدرو :

— سوف نرى الآن إن كانت تلك التهم الشائنة التي الصفقت بأسرتي زورا وبهتانا ستثبت أمام الحقيقة !.. إن ابن خالتنا الكرديثال ستروزي سوف يشكفل بهذا الأمر ... أراهنك يا كاتانا على أن والدي الآن في جاين معزز مكرم مردود الاعتبار ، أو أنه يتأهب لهذا العود ظافراً منصوراً ...

— وسبح به الخيال برهة ، ثم أردف :

— هل من أبناء أخرى من جاين ؟ ..

— إن كنت تقصد تلك السيدة النبيلة التي نحبها ، فانك لم تخبرني قط من تكون . من هي باقة ؟ ..

بهت بدرو من تقاذ بصيرتها ... لكنه لم يجد عضاضة في أن يحجبها بالحقيقة

، ومشتان بين احدهما في علياء سمائها والأخرى في علاقتها للمهودة به

— هي النبيلة لوزا دي كارخال ..

— نعم .. لقد صحت ظنونها .. فانها قدرت ذلك من قبل بعد دلالات اجتمعت

لها .. ولم تثبت أن أجابت في غم شديد :

— لا .. لم أسمع شيئا .. فانا تركنا الجبال بعدك بزمان غير طويل .. لكني سمعت

عن (البنيورا دي سيلفا) .. واعلمك سمعت أيضا .. — ماذا .. ؟

— سمعت أنه لم يمض من طعنة سيفك ، وأنه في طريق الشفاء ..

— ربه ..! أهذا الشقي على قيد الحياة ؟

يد أن ذهبه ما عثم أن استحال إلى ارتياح .. فان الله قد رفع عنه ورر قتله على الكفر ، ذلك الوزر الذي لم يكن ليغفره لنفسه أبدا .. وهو الآن يستطيع أن يلاقى دي سيلفا مرة أخرى ويقبضه غير مستوجب ذنبا ولا إثم ، هذا إذا تركه دون فرنسكو على قيد الحياة ولم يسبقه إلى القضاء عليه .. ولا شك أن دي سيلفا سيموت كدأ حين يعود آل فارچاس إلى جاين مرفوعى الرووس .. ولا شك أيضا أن الأب

أوليدو سوف يسر بهذا النبأ .. وقال بدرو في غير اكتراث :

— لا بأس .. لا بأس .. سوف أتاكد من إصابة المقتل في المرة القادمة ..

وأقبلت كاتانا عليه تريد أن تصلح ملابسه المزقة بآبرة وخط جاءت بهما عبر البحار وكانت معتزة بهما اعزازها بكر نقيس ، ولكن هذه العملية أوجت إلى حين بسبب تمخ في الأبواق انبعث فجأة مقترنا بوقع حوافر جياد وهرج ساد أرجاء المكان .. فاستوى بدرو قائماً وخرج مع كاتانا إلى الباب ..

قد وصل كورتيز على رأس جيشه إلى فيلاريكا .. وكان الجيش مؤلفا من الفرسان والمشاة من حملة السهام والبلط والسيوف ، ومن رجال المدفعية يعمرها أهل الجرائر .. وإذ دلف كورتيز إلى القلعة وحانت منه التفاتة إلى بدرو : بعم شطره قائلا :

— أهلا بولدي بدرو .. إنك أزعجتنا بما حدث لك ، لكن يسرنى أن أراك في طريق الشفاء .. هل جاءتك رسالتى ؟ بديع .. لا تشكرنى .. اشكر العناية الإلهية التي صانتك ووقفتك ..

ولما وقع نظره على كاتانا ، قال وقد لمعت عيناه : ومن يكون هذا ... السيد ؟

فطن بدرو إلى التماع عيني القائد ، ولما كان يعرف نزعة القرامية بأدر إلى قطع الطريق عليه قائلا : هذه صديقتى الحبيبة كاتانا بيريز ، من بلدة جاين .. وقد وصلت مع أخيها في سفينة الكابتن (سلسيدو) .. إنها حبيبتى ..

وطوق خصرها بساعده .. فقهم كورتيز للراد ، وقال وهو يقرص أذن كاتانا :

— إننا يا فتاتى كنا نسمى الكابتن دي فارچاس بدرو الأحمر .. لكننا الآن

ستدعوه بدرو السعيد ..

الفصل الثاني عشر

ابتدأ الزحف للموعد إلى داخلية الاقليم في السادس عشر من شهر أغسطس ، وسار الجيش يشق طريقه في غابات سمبالا الحارة شطر الجبال ووجهته بلاد المكسيك القاصية ، يتقدمه بدرو دي فارچاس على رأس فرقة الاستطلاع ..

أجل .. سار الجيش قدما في زحفه بعد أن أغرق كورتيز أسطول الخلة دون أن

يبقى منه على سفينة واحدة .. وما فعل هذا إلا لأن السفن كانت تغرى بالضعف والتردد وتثني عن الغزو والتقدم ..

وكانت عدة الجيش في ذلك الزحف أربعمائة من الأسبان ، وطوائف من مقاتلة اللوثونوك الموالين لهم ، ونحو ألف من أهل الجزائر الهندية يتولون جر للدافع وحمل مؤونة الجيش ..

وفي مساء اليوم الأول من الزحف حط الجيش للراحة في سفح الجبل ، وتولت كاتانا وبعض نساء للمسكر طهي الطعام المؤلف من الطيور واللحوم في قدور فوق ثيران مشبوبة ..

على أن حدة النار لم تستطع أن تسكت عصافير بطن بوتيللو الفلسكي ، فيعم شطر كاتانا يستحقها ولعابه يكاد يسيل ..

كان بوتيللو رجلاً رصيناً وقوراً يحترمه أفراد الجيش لعله بأسرار الفلك ومقدرته في العرافة والتنجم .. وما كادت كاتانا تراه على هذه الحال حتى رقت لحاله وقالت له باسمه : — إذا أنا أعطيتك نصيبك قبل الآخرين فهل تسدي إلى معروفاً فيها بعد ؟ ..

عندي لم أبيض ، وشحم كثير .. — أي معروف تريد ؟ ..

— هو شيء بسيط .. سأخبرك به فيما بعد ..

ومصمت كاتانا بشفتيها ، وأردفت وهي تشك أحد الطيور للسلوكة بمنجرتها : — انظر ! .. سأعطيك جناحاً سميناً وصدر أبيضاً ، مع شريحة طرية يسيل منها الدهن ..

فقال بوتيللو وقد ذاب بين يديها : أنا على استعداد لكل ما تريد ..

وأخرج طبقاً من كيسه وقدمه لها قائلاً : آخفيني من كرمك بالطير ، ولا تنسني على

باللحم الأحمر ! .. إني أكاد أموت من الجوع ..

فكانت كاتانا وهي تغمر بعينها : قد اتفقنا إذن ..

وبرت كاتانا بوعدها للفلسكي .. وبعد الطعام جاءته وجلست بجانبه قائلة :

— ما رأيك يا أستاذ ؟ .. هل أعجبك اللحم ؟ ..

فأجاب بوتيللو في ارتياح ظاهر وهو يتجشأ راضياً قرير العين :

— مدهش ! .. إني لم أدق أذنه في هذا الأقليم .. والآن يا عزيزتي واحدة

بواحدة .. ماذا تريد مني ؟ .. حظك بين النجوم ؟ ..

فهزت رأسها قائلة : كلا .. ليس في هذا فائدة لي .. إن كان حظي سعيداً فأحب

أن ألقاه مفاجأة .. وإن كان سيئاً فلا أريد أن أسمع به ..

— كلام حكيم .. إذن ماذا تريد ؟ ..

فازمت كاتانا الصمت هنيهة ، وراحت تنظر إلى الحشائش تحت قدميها وتشدها من

منابتها بحركة عصبية .. ثم قالت آخر الأمر بصوت خافت : أنا عاشقة ...

— أحقا ؟ ..

فاه بوتيللو بهذه الكلمة وهو يغني ابتسامته ، فقد كانت علاقة بدرو بكاتانا معروفة

للجيش كله .. وقد أجابت وهي تضم يدها إلى صدرها :

— آه يا أستاذ ! .. أنا غارقة في الحب ! .. إني أريد حبة شخص معين ! .. أريد

حبه أكثر من أي شيء آخر في الدنيا كلها ! .. ولا يهمني حسن الحظ أو سوءه ،

ولكن إذا كان ذلك الشخص يبادلني الحب ، فسيان عندي كل شيء بعد ذلك ! ..

فقال الفلسكي بلهجة أصحاب المهنة : صارحيني يا فتاتي .. ألا تحبك بدرو دي فارجاس ؟

فأجابت في تلغم : لا أعلم .. انه يختصني بمودته .. أتى أعجبه أحياناً .. لكن هل

هو يحبني يا أستاذ ؟ .. وهل يكن لي ذرة من الحب الذي أكنه له ؟ .. انه يفكر في

الحرب ، والذهب ، والشهرة ، طبقاً لتقاليد القروسية .. وهو يعلم بسيدة نيلية في إسبانيا ..

ليحلم بها ما شاء ، انني لأطلب ...

واحتبس صوتها .. فوضع بوتيللو يده العريضة على يدها قائلاً :

— هذه هي الحياة يا عزيزتي .. إن السكاكين دي فارجاس من سلالة الأشراف ..

ولا يمكن أن تطمعي عنده في الكثير ..

فانفجرت قائلة : أنا لا أطمع في شيء .. ولكن مع ذلك أحبه كل الحب ..

(م - ٨ - فارس قسطله)

— إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا جئت إلى ؟ فقالت وهي تتطلع إليه بلهفة :
— لأن جاهلة .. ولأنك عالم وحكيم وتلك قوى سرية .. فإذا استطعت أن تعطيني
شيئا سحريا أتمكن به من الفوز بحبه وأهله ..

فكلاف بوتيللو الغضب إبتغافا لدوره قائلا :

— ما هذا ؟ أتحيين للأستاذ بوتيللو تلميذ نوافرا العظيم وتساأينه شيئا كهذا وكأنه
ساحر مأجور ؟ باللوفاحة !

ولما ألغاه مستفقا وجهه تبسط في وجهها وأردف برقة :

— لكنني كنت مثلك في دور الشباب وأقدر شعورك في هذا الموقف .. وأنت
فتاة طيبة ولا تريدن بأحد شرآ .. ثم إنى أعرف من أقانين السحر ما يغضب اليك القديس
الناسك .. ثم أخلد الساحر للذكر إلى التأمل وراح يمشط لحية هنية قال بعدها :
— لا بأس .. أقول لك الحق إن عندي شيئا سحريا لا يضارعه شيء في الدنيا إطلاقاً

وهو من القوة بحيث يخضع لك أى إنسان على قيد الحياة .. هو خاتم عجوف من روما
اعطانية استاذ السحرة نفسه .. لكنه يساوى ثروة .. ولا يمكننى أن أتخلى عنه

فراحت كاتانا للسكينة تتطلع إليه بعينين حانتين وهي تشتهي الحصول على هذه
العجبة ، بينما استرسل بوتيللو يقول :

— إنى احتفظت بهذا الخاتم السحري سنين طويلة لكي أعيه إلى إحدى الملوك
إنه خاتم فريد في نوعه .. وقد صنع من عشرة آلاف مادة سحرية تسكن كل واحدة
منها لاختراع عشرة شياطين .. وأملى أن يبتاعه منى الامبراطور موتروما العظيم بثمن
لا يقل عن طن من الذهب ..

فاجترأت كاتانا قائلة : ألا يمكن أن تعيرنى هذا الخاتم بأستاذ ؟ يوما واحداً فقط ؟
— كلا .. لا يمكن أن أدعه بفارقتى .. لكننى سأريه لك فقط من باب الاعتراف
بطبيعتك ولديك ما كولاتك ..

وأخرج من جيبه كيساً مليئاً بقطع الخلى الرخيصة التى يتجر بها مع الهنود الجور ،
فجعل يبيش فيها حتى استخرج منها خاتماً كبيراً مذهبا تعلوه باقوة زجاجية براقه تنفتح

وتكشف عن تجويف تحتها ... وقال بوتيللو وهو يلس الباقوة بخشوع جعل الفتاة
تضطرم لهفة :

— انظري .. هذه الباقوة تعرف باسم (زهرة الانسراج) .. ضعيه في اصبعك
واستشعري الحرارة التى يبعثها لعظم القوى التى به

وقد بلغ من قوة إعطاء هذا الساحر الحبيث فى نفس كاتانا الساذجة أن شعرت
بالحرارة تدب فى اصبعها ، حتى راحت تديره وهي لا تفارقه بنظرها ، وغتمعت قائلة :

— مدهش !

— بل هو معجزة .. وللحصول على مفعوله الأكيد وضمان تأثيره فى الشخص
الطلوب ، يجب أن يوضع فى التجويف شيء من أثره ، مثل شعرة أو قلامات أظفاره
ولكن دون أن يشعر بذلك ..

وسرعان ما أخرجت كاتانا كيساً صغيراً كان معلقاً بحيط حول عنقها من الداخل ،
وتولت البيان قائلة :

— هذا بعض من شعر الكابتن بدرودى فارجاس احتفظت به فوق صدرى بعد
أن حلفت رأسه .. وقد قرأت عليه بعض الصلوات ولكن التأثير السحري لم يظهر مفعوله
وأخرجت كاتانا من الكيس بعض شعرات دسها فى تجويف الخاتم قائلة :

— هذا للتجربة فقط ..

— نعم .. وماذا تريدن غير ذلك ؟

والآن ، اخرجى الشعر وردى الخاتم .. سأدعك تنظرين إليه فى فرصة أخرى ..
فابتعدت عنه قائلة وهي تطبق يدها على الخاتم :

— كلا .. دعه لى هذه الليلة .. من على بهذا الفضل أيها الأستاذ العظيم .. ابنى
أعدك أن أرفع ملابسك وأغسلها لك دائماً .. إنى سأتحفك فى كل وقت بأطيب وألذ
ما فى القدر .. لئن طوقتى بهذا الجميل سأظل طول العمر شاكرة لك !

كان بوتيللو مثلاً بارعاً .. ولذلك لاحت عليه أولاً أمارات البهتة والذهول .. ثم
أعقبها علامات التأثر .. ثم قال بعد تردد :

— ما أنت إلا لصة سارقة ! إن هذا الخاتم لا يقدر بمال .. ثرقين وتسلين !

كل ليلة بعد العشاء ، أما هذه الليلة فكان لقاتهما طابع خاص ..
وقال لها بدرو حين آنس ذهولها : ماذا جرى ؟ ، إنى لست من الصغاريت !
فتكلفت الاتسام قائلة : .

— إنك فاجأتى .. جوانيتو ! . اعزف على القيثارة أنغام السرايندا ..
وأفسح المنفرجون مكانا .. وأحاطوا بهما بين واقفين وقاعدين .. وكانت السنة
النيران تراقص على وجوههم للتحية وخوذات رؤوسهم ... ولحمت كاتانا بينهم بوتيللو
القلبي ، النجم ، الساحر ، وكان يبسم مزهواً ابتسامة الظفر وكأنه يقول لها : رأيت
مصدق قولى ؟ . فأومأت إليه برصانة ، وانبعثت نغمات القيثارة فشغلنها عن متابعة التفكير
وقد رقصت كاتانا كما لم ترقص في حياتها .. وكيف لا يكون ذلك حالها وهما
ذا بدرو حبيب القلب ومهجة الروح يغاصرها ويأدبها الحركات والكر والفر والعناق
والثأنى وهى تستشعر في كل ذلك النماح نظراته وحرارة لمساته واضطرام مشاعره ،
حتى سكرت بنغم السعادة ، وألهبت الأكف بالتصفيق وشقت الحناجر بالهتاف .
وقاربت الرقصة ختامها .. وتهاككت فوق ذراعيه اعياء وجهداً .. وطبع على
شفيتها قبلة أودعها جماع شعوره حتى عدت نفسها أسعد من في الوجود ..
وكانت هذه الليلة فاتحة عهد بهيج في حياة كاتانا وبدرو قوامه السعادة للتبادلة
والنعم للشر .

الفصل الرابع عشر

حل دون فرنسكو دى فارجاس وزوجته دون ماريا ضيفين مكرمين في قصر
آل ستروزي أقرباء الزوجة بمدينة فلورنسا الإيطالية بعد هربهما من الاضطهاد الديني
الشنيع الذى استهدفت له الأسرة في اسبانيا على نحو ما رأى القارىء فيما سلف من
الفصول .. بيد أن الحفاوة وكرم الضيافة لم ينسيا الزوجين ولدهما بدرو ولم ينزعا من
نفسهما تلك المخاوف التى تملكتهما لانقطاع أنبائه عنهما ، حتى لم يعرفا أوفق إلى
النجاة والافلات من اسبانيا ، أم وقع في أيدي رجال محاكم التفتيش ..
وانقضت أربعة أشهر على هربهما من جاين دون أن ينضم اليهما بدرو أو يبلغهما
نبأ عن مصيره حتى استحوز اليأس على قلبيهما وأطبق عليهما قاسيا متجهما مثل أيام
الحريف الذى أظلهما ..

وتزبدن نصبي من اللحوم ، في مقابل إعارتك هذا الكثر الثمين ..! افعل ما يحلو لك ،
فالذنب ذنبى أنا للغفل الأبله .. إن طيبة قلبى ستكون السبب في القضاء على يومنا
من الأيام .. احتفظى بالخاتم هذه الليلة .. لكن احرصى عليه حرصك على نظرك ..
وإذا أضعته حلت عليك اللعنات السبع وسخطتك الشياطين الى شئ كالبعلة .. اذهبي
أيتها اللبنة للأكرة ..

فرغت يده الى شفيتها قائلة : شكرا لك أيها الأستاذ النيل .. شكرا لك من أعماق
القلوب ..! سأحرص على الخاتم حرصى على الحياة ..
وابتعدت عنه وقد ضمت يديها إلى صدرها ..

أما بوتيللو فقد شيعها بضحكة خافتة .. فقد ضمن أن يطوى الرحلة الى الكسيك
وهو مقضى الحاجة ناعما بالراحة ، في غير مقابل إلا خاتم رخيص .. وأبدع ما في هذا
كله أنه لأول مرة في حياته آمن بقيمة السحر ومزاياه الباهرة !

الفصل الثالث عشر

استراح أفراد الحملة وامتلاأت منهم البطون .. وتعددوا أفواجا متناثرة يسلمون
ويتضاحكون في الليل الصافي الأديم بين ظلال الاشجار ووهج النيران للشبوبة .. وتناول
أحدهم قيثارة يعزف عليها بعض الألحان حين عادت كاتانا من خلوتها مع بوتيللو ظافرة
بالخاتم السحري ، فتصايحوا بها يطلبون منها أن ترقص لهم رقصة (سرايندا) تمجيداً
لذكرى بلدتها (جاين) ، فلما احتجت بالتعب بعد مجهود النهار الشاق انضم اليهم
شقيقها مانويل مؤيداً مطلبهم إذ كان غفوراً بأخته محباً لاظهار مواهبها ، فلم يسعها إزاء
الالحاح العام إلا أن تنصاع لرغبتهم الاحماعية ، وقالت لمن حولها :

— لكن من يكون زميلى في الرقص ؟

فلم تكذبتم سؤالها حتى سمعت صوت بدرو يقول : وهو يشق طريقه بين المحيطين بها :

— سترقصين معى يا كاتانا .. أتبحثن عن زميل وأنا هنا ؟ ..

حملت كاتانا برهة مشدودة .. فقد تذكرت الخاتم بعد أن نسيت .. ها هو ذا
الدليل على تأثيره السحري مثلاً أمامها في شخص بدرو الذى وقف أمامها باسمها وكأنما
هبط من بين السحب .. ولو غير هذه الليلة لما اكرتت ، لأنهما كما يتلافان عادة

و ذات ليلة جاءهما الخادم برسالة لم يهتم دون فرنسكو أول الأمر بها وقال لزوجته إنه سيقروها في الصباح إذ حسبها واحدة من تلك الرسائل العديدة التي كان يتلقاها في صدد المساعي للبدولة لدى البابا في روما بمساعدة مضيغه لرفع المظالم التي حاقت بأسرته ورد اعتباره . . . بيد أنه لم يكذب نعم النظر في آثار الثقلبات الجوية التي كانت ماثلة في غلاف الرسالة وفي تعرض خطها للبلل حتى لاحظت عليه فجأة علامات الاهتمام الشديد وأهوى على الرسالة يقضها بيدين راعشتين وزوجته تسائله عن حاله مبهوكة . فأجابها في صوت مغمم بالتأثر : إنها من بدرو . من ولدنا .

وسرعان ما وثبت إلى جانبه تشاركه قراءتها ، فإذا هي الرسالة التي كان بدرو قد سطرها في ميناء سانلوكار الأسباني وعهد بها إلى ربان السفينة الإيطالية الذي كان ينوي الإبحار معه إلى جنوا قبل عدوله عن هذا العزم والانضمام إلى جوان جارسيا . . . وقد شهدت الرسالة أطورا آشتى من استهداف السفينة للتأخير بفعل العواصف . ومن الثقل في الحانات ، ومن يبعث إلى الرسل المتعاقبين الطامعين في المكافأة للؤكددة عند آل ستروزي للثبوتين ، حتى انتهى بها اللطف أخيرا إلى غايتها في فلورنسا . . .

وما كادت الأم تلم بمضمون الرسالة حتى جثت على ركبتيها تشكر الله على نجاة ولدها . أما الأب فقد تصنع الحشونة وراح يقول لاختفاء شعور التأثر الذي تملكه : — هكذا فعل الشقي . . . ذهب إلى جزائر الهند أخيرا رغم كل شيء . . . ألا لو وضعت يدي عليه لألحيت ظهره بالسوط . . .

لكن ذلك لم يمنع دون فرنسكو من أن يذيع مفاخرها بين مضيغه في اليوم التالي أن ولده بدرو قد انضم إلى حملة الكابتن هرنان كورتيز المكتشف القامع الصيت لغزو أقاليم ما وراء البحار في رحلة سيعود منها ولا ريب ظافرا بالمجد والثراء . . . وفي الحق أن هذا النبأ السار كان باعثا للدوق فرنسكو على مضاعفة السعي لرد اعتباره ورفع آثار تلك التهم التي الصقتها به وبأسرته محكمة التفتيش في جابن ظلما وعدوانا . . .

وقد استغرقت مساعيه زمنا مديدا لبعث الشقة بين أسبانيا وإيطاليا ، وإن كانت المساعي في ذاتها لم تصادف مصاعب يعتد بها . . . فإن أسرة الكاردينال ستروزي كانت

من أبناء عمومة البابا ، كما كانت تحت بصلة القرني للكاردينال جوليو دي مديشي الرجل القوي النفوذ في البلاط البابوي . . . وقد عرف القراء أن الكاردينال ستروزي هو ابن خالة ماريا دي فارجاس . . .

ومن ناحية أخرى فقد كان دوق فرنسكو من أقرباء دوق سيدونيا ، وكان من شأن التهم المصقة بقرينة أن تتال من تلقاء نسب هذا النيل الخطير وبراءته من لومة العنصرية اليهودية . . . وأنه لمن السخف البين أن يتهم في عقيدته الدينية من يعت بوشائج القرني إلى أساطين للمسيحية من أمثال البابا والكاردينال والدوق . . . وبغض النظر عن وشائج القرني هذه فإن هؤلاء الأقطاب الثلاثة قد عدوا تلك الاتهامات بمثابة سببة شخصيته لهم جميعا يحرسون أشد الحرس على دفعها عنهم وإزالة وصمتها في غير زيث ولا إبطاء . . .

يضاف إلى ذلك أنه قد جد اعتبار سياسي بالغ الخطورة أقامه فرنسكو دي فارجاس أكبر الفائدة في مساعيه . . . فقد شهد النصف الأول من عام ١٥١٩ منافسة حامية بين الملك شارل الأسباني والملك فرنسيس القرني في انتخابات لقب الامبراطورية الرومانية المقدسة ، حتى كان ذلك الموضوع هو الشغل الشاغل لأساسة العهد في أوروبا الغربية كلها . . . ولقد كان لبابا في تلك الانتخابات صوت لا يستهان به . وكان من شأن شكايه يبعث بها قداسه إلى ملك أسبانيا عن مظالم استهدف لها (ولده) المحبوب فرنسكو دي فارجاس وهو من رعيا جلالة الأوقياء . . . كان من شأن شكايه كهذه أن تلقى في البلاط الأسباني من الرعاية والاعتبار في تلك الظروف ما لم تكن تلقاه في غيرها . . .

وكذلك نرى رئاسة محاكم التفتيش في مدريد وقد تعرضت رغم سطوتها وسلطانها لضغط أشد مما تستأهله هذه القضية اليسيرة . . . وماذا تستطيع الرئاسة أن تفعل وهي تواجه رأس الكنيسة وعاهل أسبانيا إلا أن تعترف بالخطأ لقرة الأولى في تاريخ محاكم التفتيش وهي عادة لا تنتفي ولا تلتين ؟ . . .

واستمع الآن إلى منطق رئاسة التفتيش وتحليلها الموقف والحال الذي انتهت إليه فإن الأب ايناسيو دي لورا رئيس محكمة تفتيش جابين لم يظلم ولم يتعسف . في رأي

الرئاسة - وإنما أكبر الظن أنه كان ضحية الخداع .. ومع أن آل دي فارجاس أنفسهم لم يخلو من اللوم والتثريب لمقاومتهم بالعنف ممثلي ديوان التفطيش وقد كانوا لا شك سيقضون براءة ساحتهم بعد التحقيق والتحصيل ، فإن الرئاسة تساحت في هذه المآخذ وقررت إلغاء الاتهامات التي وجهت إليهم ، ورد كافة ما صودر من أموالهم وممتلكاتهم بل قد فعلت الرئاسة أكثر من هذا .. فقد بحثت عن كبش للفداء ، وألفت التهمة واللوم فيما حدث من أخطاء على دي سيلفا لما اندفع إليه من نهور وأدلى به من بيانات لم تقم على أساس من الحق والصدق ..

يبد أن العفو ورد الاعتذار لم يكن فيها الكفاية .. فإن دوق سيدويتا قرر أن يقتض لما ناله من أساءة في شخص قريبه دي فارجاس ، وأن يطالب بالتعويض المناسب وإذا كانت تصفية الحساب الشخصي بين دون فرنسكو وبين دي سيلفا لم تكن ميسورة إذ ذاك لحسن حظ الأخير بسبب إيجاره إلى جزائر الهند لكي ينضم إلى الأب دي لورا ، فإن دوق سيدويتا باشر ضد دي سيلفا دعوى تعويض انتهت بمصادرة ما بقي من ممتلكاته بعد أن غامر بأكثر ثروته مستثمراً في مشروع الجزائر .. وكان من رحمة الأقدار بدي سيلفا أنه لم يعلم وهو في مغامرته في الدنيا الجديدة بما حل به من بلاء في أرض الوطن ..

وقد استغرقت هذه الساعي جميعاً نيفاً وعاماً ، حتى أن جيش كورتير وفي عداده بدرو دي فارجاس قد اجتاز الجبال واشتبك في معارك حامية مع قبائل تلاسكالا في المكسيك قبلما استطاع دون فرنسكو أن يفرغ من مساعيه على هذه الصورة الباهرة ويتأهب للعودة إلى جاين في شهر سبتمبر رافع الرأس موفور الكرامة .. وبإياله من عود حميد لم يكن في حساب الزوجين حين غادرا إسبانيا طريدين مهضى الجناح

الفصل الخامس عشر

قصدت لورزا دي كارخال مع والدها المركيز ومريرتها إلى الكنيسة في بلدة جاين الاسبانية يوم الأحد من أكتوبر كعادتها كل أسبوع ، بعد نحو عام من اقترانها بالسيد ديجو دي سيلفا ، وبعد عشرة أشهر من أبحار زوجها إلى الدنيا الجديدة .. وبينما كانت لورزا في مكانها بالكنيسة إذ آنت حركه خلفية مقترنة بحفيف

ثياب وهمس يسير جعلتها تدبر رأسها لتتظفر ما يدور .. فماذا رأت حقاً ؟ .. رأت دون فرنسكو دي فارجاس يتقدم في الكنيسة وزوجته دون ماريا متوكئة على ساعده ! ..

لم يكن شك في أنها علمت كما علم أهل البلدة بعودة آل دي فارجاس بالأمس وصمت بما أسبغ عليهم من مجالى المجد والتكريم .. بل انتهى إليها كذلك أن دون فرنسكو ظفر من التاج بمعاش مضاعف ، وبوشك أن ينتخب في الدورة القادمة عمدة للبلدة وقد سمعت والدها المركيز يتحدث بحرارة وإعجاب عن هذا الرجل العظيم ويقول إنه كان دائماً من أصدقائه الأوفياء .. فقالت له لورزا وهي لم تكن تجاربه بعد في دهائه وحسنته وانحيازته دائماً إلى الجانب القوي :

— لكنك منذ عام واحد ياسيدي كنت ترى في دون فرنسكو رأياً آخر ... فقاطعتها للمركيز قائلاً :

— هذا جائز يا ابنتي .. وهو إن صح ، فأعلك تدركين السبب .. إن رجلاً له مثل خبرتي الواسعة يمكن أن يخذله شق شرير .. ولاشك أن زوجك الفاسد الطوية الذي جدد المجمع المقدس في صدد أسرة دي فارجاس ، قد خدعني أنا أيضاً .. فإذا أنا أنشيت الآن على دون فرنسكو فأنما أقرر حقيقة لا يمارى فيها إنسان

والواقع أن لورزا كانت متفقة مع والدها في الشارب والطباع ، ولعلها تقبلت آراءه في غير تردد ولا اعتراض .. ولقد عهدت في شخص دي سيلفا الحسة والفظاظة ، ولكنها كانت على استعداد لتجاوز عن هذه النواحي في خلقه ، وكانت مستطبعة أن تظل على ولائها له ، لو أنه ظل غنياً متمتعاً بالحظوة والنفوذ .. فلما بات مهدداً بالفقير بسبب مصادرة ممتلكاته وبسبب مغامرته المالية الجسيمة في الجزائر الهندية وأما وقد تنكر له المجمع المقدس وحلت عليه نقمته .. فلذلك ما أوقفه الآن لديها في موقف المجرم الأثيم وهي لا ترضى قط أن تكون زوجة مخلوق هذه الآن صفاته .. وبوإزى هذا من الناحية الأخرى أن آل دي فارجاس بعد تبرئة ساحتهم ينعمون الآن بالحظوة ويستأهلون الاحترام .. فلهذه الاعتبارات كلها لم يسعها إلا أن تقول لوالدها للمركيز مؤمنة على كلامه : إني فهمت ياسيدي وأدركت كل شيء ...

ولم تنالك لوزا وهي تنظر إلى دون فرنسكو وزوجته في ركوعهما للصلاة أن
سبحت بأفكارها إلى شخص يدرو .. إنه في تلك البلاد النائية عبر البحار قد لا يكون
عليها زواجها .. أتراه ما يرحب بعدها مليكة أحلامه ؟ أتراه قد ظل حفيظا على ذلك
التدليل الذي أهدته إياه ؟ لقد تمت الآن بعد هذا التطور الذي اعترها أن يكون محفظا
بالتدليل وأن يعلم الناس بأمره وأن يقرنوا اسمها باسمه .. ولولا وجود دي سيلفا ولولا
تلك الغلظة التي اقترفتها والدها بتزويجها منه ، لكنت حياتها الآن أقرب إلى السعادة
مع يدرو الذي حقق له قلبها خفقة الحب الأول ...

ولم تلبث لوزا وهي مسترسلة في خواطرها على هذه الصورة أن ذهب عنها اليأس
وخامرها الرجاء في المستقبل .. فقد لا يبعد أن يتلاقى دي سيلفا ويدرو في جزائر الهند
فلا يتجو زوجها في هذه المرة كما نجح في المرة الأولى .. أولعل حادثا آخر قد يخل بزواجها
بل إن والدها أخذ يفكر الآن في العمل على إلغاء هذا الزواج .. وإذن فهناك فرس
طبية لاستعادة حريتها ، ومتى استعادت حريتها انفسح أمامها مجال التفكير في الحبيب الأول
وبعد انتهاء القداس وقف دون فرنسكو وزوجته عند مدخل الكنيسة يحف
بهما بعض أعيان البلدة .. فتوقف للركيز دي كارخال وقال لفتاته :

— اذهبي إلى مركبتنا يا بنتي ، وسألتحق بك بعد لحظة .. وعمن أن تؤجلي السلام
على صديقتنا الكرعيين إلى فرصة أخرى قريبة ..
وشد ما كان ارتعاج لوزا حين ألفت والدها يشق طريقه بين الجمع المحتشد حول
دون فرنسكو الذي الزواج ، بالنظر إلى ارتباطه بدي سيلفا برباط المصاهرة . وتلك
هبطت درجات السلم بسرعة وفي أثرها مريبتها أنطونيا ودلفينا إلى الركبة للسماعوا تنظرا
عن كسب ما يدور ..

وفي الحق إن الركيز دي كارخال ما كاد يدنو من الدون فرنسكو حتى خيم الصمت
على الجمع المحتشد .. وأنشأ الركيز يقول بلهجة خطابية بعد أن انحنى تحية تليق بالقدر اللائق
بمقامه : أيها السيدان التيلان .. اصحالي أن أضيف تهاني إلى عديد التهئات التي
اقرنت بعودتكما سالمين .. وإني قد أسفت غاية الأسف لغيابكما ولما كان من أسبابه ..
ويسرنى أن عقيد النبلاء في جاين قد انتظم الآن أنفوس درره ... وإني وأصدقائك
العديدين لفخورون بهذه المناسبة .

يبد أن الركيز لم يتم خطبته العشاء .. فان دون فرنسكو دي فارجاس رفع قامته
وشمخ بأفقه ، وزم فمه ازدراء ، ووضع يده على مقبض عصاه على مبعدة منه ، وراح
يقول بلهجة عدائية جافة لا هوادة فيها : دعنا من الخطب الزنانة يا حضرة الركيز ...
إني لا أملك طلائتك في الحديث ، وسأطرق لب الموضوع .. تزعم أنك تعد نفسك
من أصدقائي ؟ ليكن مفهومنا أنه ليس صديقا لي كل من يمت إلى ديجو دي سيلفا
بصلة الصداقة أو رابطة النسب .. وإذا استاء أحد من كلامي هذا ، فان ميدان الترضية
مفتوح .. إنك في الوقت الذي ذهبت تأسف فيه على غيابي ، عمدت إلى مصاهرة من
كان السبب فيه وفي قتل ابنتي .. صدقتي إذا قلت إني أن يرتاح لي بال ما دام ديجو
دي سيلفا على قيد الحياة .. فلا يكن بيني وبينك شيء من القس في هذا الأمر .

خيم الصمت على الحاضرين مقترنا بالحيرة والحرج ، بينما همت لوزا تقول لمريبتها :
— يا للقدسين ! كنت أعلم أن هذا سيحدث ! إني أكره الخصام وللشاحنة ..
يبد أن لوزا أخطأت في تقديرها مواهب أبيها .. أمثله يخاضم رجلا ينعم بالحظوظ
لدى البابا ولدى الملوك الامبراطور ؟ لا كان هذا ! وفي الحق إن الركيز لم يعرج ولم
يضطرب .. بل راح يقول في لهجة العتاب الرصين : إني ياسيدي لأبعد الناس عن
فرض صداقتي على أي انسان ... ولكنني حينما زارني ليلا نجلتك الباسل الذي أكن له
أعمق المحبة ، وحينما أيقظني من نومي طالبا مساعدتي لك حين كنت معتقلا في القلعة
على تلك الصورة الظلمة .. في ذلك الوقت كنت معدودا بين أصدقائك .

فقال دي فارجاس مبهوتا : نجل ! إني لم أعلم بشيء من هذا !
فقال الركيز هازأ رأسه : إني ياسيدي كنت أعد نفسي صديقك حينما استقبلتني بخنان
الابوة وحينما أسديت له أصدق النصيح وأكدت له بالغ استعدادي لسكل عون ومساعدة !
ولم تنالك لوزا وأنطونيا في الركبة أن تبادلنا النظر لما في هذا الكلام من قلب للحقائق .
وأما دوق فرنسكو فقد سقط في يده وبدت عليه علامة الحيرة ... على أنه ما كاد يهم
الكلام حتى سبقه الركيز قائلا :

— لحظة ياسيدي ... أكرر لك قولي إني لا أفرض صداقتي عليك فرضا ...
إنك تحدثت عن المصاهرة التي تمت بيني وبين دي سيلفا ... فأعلم ياسيدي ولعلم كل

إنسان أن هذه الصاهرة باقية بالاسم لا أكثر ... إني منذ بعيد قد نبذت كافة الارتباطات المترتبة عليها ، وإني لأتطلع بفارغ الصبر إلى يوم تنقطع هذه الصلة بالاسم كما انقطعت بالعمل . إني كنت ضحية الحديقة والتعريض ، وإني مثلك قد استهدفت للاذى على يدي ديمو دي سيلفا ...

وإنك بعد ذلك لتظلمني ظمناً كبيراً إذا اعتبرني مرتبطاً وإياه برابطة صحيحة ... وداعاً ياسيدي ... لم يكن ثمة أبلغ من هذا الأسلوب ... وسرعان ما قال دون فرنسكو بلهجة الجدد وهو يضع يده على ذراع المركيز :

— يا إلهي ... إن كان هذا الواقع ، فإني أرجو من غفامتك العفو ... إني تكلمت بلهجة غير لائقة دون علم بالحقائق ... فمـ لا اغتفرت لي الكلمات التي بدرت مني تسرعاً وخطأ ؟ فقال المركيز :

— من كل قلبي ... لك هذا من كل قلبي ... وتعاقد الرجلان بين ارتياح أصدقائهما ... وقال دون فرنسكو :
— إني سأقدم لك احتراماً في القريب العاجل ... فقال المركيز :
— كلا ياسيدي ... إن البدء بالزيارة شرف يجب أن أحتفظ به لنفسي ... وتبادلا الانحناء والتلويح بالتعبات ... وهبط المركيز درجات الكنيسة ، وكرر الانحناء ثم دلف إلى مركبته ...

وما كاد يستقر في مقعده إلى جانب لورزا حتى تنفس الصعداء قائلاً :
— ياله من نبيل شهيم مستقيم ، وإن كان ساذجاً سليم الطوية ! .. لكن هذا لا يعاب عليه في زماننا هذا ، زمن التفاهة ... وقالت لورزا إعجاباً بدهاء والدها :
— ما كان أبعدك ياسيدي ! .. لكن هل كان حقاً أن تتحدث عن زوجي على ملاء من الناس ؟ فأجاب بعد تردد :

— نعم ... كان حقاً ... وإلا فلماذا اخترت هذه اللحظة ؟ .. اصغى إلى ياطفلي ... متى وجدت رجلاً يفرق وقد تشبثت يده بك ، فلا بد لك من ضربه بقوة على رأسه حتى لا يفرقك معه ... إن زوجك يهوناً هو في موقف هذا التعريق ... فإنه كان سيأبى في توريث الجمع المقدس وإحراجك كما استوجب غضب أناس أقوىاء مثل دوق سيدونيا

فلندعه يفرق ... وإني ما فعلت إلا أن ضربته على رأسه ... مفهوم ؟ ...

— مفهوم ياسيدي الوالد ...

وساد الصمت برهة ، ولما دنت المركبة من قصر المركيز قال لفتاته :

اسمعي يا فتاتي .. عليك بزيارة دون ماريا دي فارغاس بعد أيام قلائل .. وسوف

ألفك ما تقولين وتفعلين ..

فقال لورزا وهي تجاهد لاختفاء شدة اهتمامها : كما تشاء يا سيدي الوالد .

الفصل السادس عشر

شعرت المريية أنطونيا (هرنانديز) على ضوء الظروف التي جددت أنها محقة في أن تكشف للمركيز عن سر حرصت في الماضي على إخفائه .. فتبعته إلى الحديقة في نفس هذا اليوم حيث كان جالساً وحده ساعداً شارد القلب .. فلما حيته قال لها : خيراً ..

فراحت تقول :

— لدى شيء يثقل ضميري يا صاحب الفخامة وينبغي أن تعرفه ، إنه يتصل بالدونا لوريز فقال للمركيز عابساً : يا للشيطان .. إنه ولا ريب شيء مكدر .. إني لا أسمع هذه الأيام إلا كل ما يسوء ويكدر .. وحتى في خلوتي لا أسلم من التطردة ..

— كلا يا صاحب الفخامة .. لعله شيء غير مكدر ، وإن كنت أرجو صفحك عن سببه .. قولي ما عندك وعجلي ..

كانت أنطونيا تجازف بذكر قصة تهاونها في الرقابة على لورزا كمرية أمينة ، بيد أنها قدرت أن مؤدى القصة سينال من موافقة المركيز ما يضمن لها صفحة عنها .. وفي الحق أنها ما كادت تصف ما كان من لقاء لورزا وبدرو في الحديقة حتى انبسطت أسارير للمركيز ، وثقت القوي والقناة بالشقيين الصغيرين ، وأسبغ على الوصيفة باسماء وصف الحيثة ولما فرغت أنطونيا من قصتها قال لها : أنا مستاء منك يا أنطونيا .. اجلسي

ولما جلست بجانبه كرر قوله قائلاً : نعم .. مستاء منك كثيراً .. لكن للشباب طيشه ولا ريب .. ولا مفر لي من الاعتراف بأنني مسرور بما سمعت .. إذن فإن هذا الشقي الصغير يحبها ؟ بما يؤسف له أنني لم أعلم بهذا في أوانه .. ولو علمته لوفر علينا الكثير .. إنك أخطأت خطأ كبيراً باخفاء الحقيقة عني ..

وأخذ المركيز الى التأمل هنيئة .. ثم أنشأ يقول : إن آل دي فارجاس ليسوا أغنياء .. وإذا طلبوا (دولة) كانوا متواضعين في الطلب .. نعم إنهم ليسوا من ذوي القنى ، لكنهم الآن من أهل الخطوة .. وهذا هو المهم في الموضوع .. أو أوافقك أنت أن يدرو يجب لويزا ؟ — كل الثقة .

— وأنها تحبه ؟ — أقول هذا عن بيته .

— إذن فالمسألة محلولة .. سنعمل على إلقاء زواجها من دي سيلفا .. وما زال عندي من المال والنفوذ ما يغني بهذا الغرض .. وسنمهد الطريق لزواج آخر أكثر حظاً وتوفيقاً .. وما علينا إلا أن نعلم آل بدرو بما بينه وبينها ، وأن نلج عن الجمع بينهما ، ونمهد الطريق قبل عودته .. أحسنت يا أنطونيا .. إنى سأحتاج الى مساعدتك — أنا خادمك الوفية يا صاحب الصخامة .

الفصل السابع عشر

قصد للمركيز في الغد الى قصر آل دي فارجاس وغايته تمهيد الطريق لمشروعاته المقبلة .. ولم يكن عسيراً على رجل له مثل طلاقته وخبرته بتقاليد المجتمعات ، فضلاً عن جاهه ونفوذه ، أن يترك أثراً طيباً ..

وقد أعرب المركيز في معرض حديثه عن اغتباطه بعودة خير مثل دون فرانسكو لسكى يرأس حفلة مصارعة الثيران المقبلة ، تلك التي يساهم فيها فريق من شعبان البلدة والتي كانت مقصورة حتى ذلك العهد على أبناء الطبقة الارستقراطية ..

وقال المركيز في هذا الصدد :

— يؤسفني ان نجلك الباسل لن يشهد هذه المناسبة الحافلة بسبب غيابه ...

وأردف باسماً : وأنا واثق أن هذا شعور كريمي أيضاً .. — أحقا ؟

— نعم فإن الشواهد تدل على أنه كان جديراً أن يظهر بالجازة ، وهو مناض عطف

لويزا كما قيل لي ...

فقال دون فرانسكو عذراً : أحقا ؟ إن خاتمكم تعلمون عنه في هذا المقام أكثر مما أعلم فقال للمركيز ضاحكاً :

— إن هؤلاء الصغار لا يهتمونوا بالكثير من شئونهم ياسديقي .. والظاهر أن

عظمت وكريمي قد تعلق كلاهما بالآخر كثيراً .. وأنا شخصياً لم أعلم بهذا إلا مؤخراً .. وهز رأسه قائلاً : وهذا من سوء الحظ في الواقع .. لأن كليهما جدير بصاحبه .. وبعد أن بذر المركيز هذه البقرة ترك الأمر عند ذلك الحد .. وكان موقفاً أن دون فرانسكو سينقل هذا الحديث إلى زوجته ولأريب ، وأنهما سيجعلان منه مادة للنقاش .. ثم أنه انتهى الفرصة وتحدث في صراحة عن دي سيلفا وعن أسفه للرابطة الزوجية بينه وبين ابنته .. وكان طبعياً أن يلقي هذا الحديث ترحيباً من مضيغه ..

وهكذا كان الطريق ممهداً أمام لويزا حين زارت دوناً ماريا بعد أسبوع برفقة مربيها وبدت المضيغة أول الأمر فائرة ظاهرة الكلفة في حضرة زوجة دي سيلفا ، بيد أنها لم تلبث أن تبسط لها وهشت في وجهها حين لمست جمالها القاتن وحسنها الخلاب وحين تذكرت أنها أمام حبيبة بدرو كما فهمت من حديث زوجها ..

ولم تكن لويزا من ناحيتها في حاجة إلى استدراك أصابع والدها والعمل بوحيا .. فإن هذه الزيارة لبنت بدرو قد أثارت لواعج أشواقها وجذبت ذكريات حبها الأول ناهرة عاطرة ، وإذا هي تسأل الأم قائلة :

— وكيف حال نجلك الشجاع ؟ لعلك لم تتلقى أنباء منه ؟

كان هذا السؤال عادياً في ظاهره .. بيد أن نظرات لويزا الحائلة قد كشفت للألم عن كثير من مكنون شعورها ومست من قلبها وتراحسها ، وإذا هي تقول متلهة الأسارير :

— لم تصلنا من بدرو أنباء مباشرة ، وإن كنا نرجو كل يوم أن تصلنا الأخبار .

لكننا تلقينا بالأمس رسالة من قريبنا دوق سيدونيا للقيم قرب ميناسانلوكار ، أخبرنا فيها أن سفينة تحت قيادة سيدين هما مولتيجو وبورتكاررو ، قد وصلت حديثاً من قبل هرتان كورتيز ، وهو القائد الذي يعمل ولدينا تحت امرته .. وقد أبلغنا الدوق أيضاً ان السفينة محملة بكثير عجيبي من الذهب والموهرات مرسله للملك الامبراطور ، وبين أنباءنا الاسبانين رسل قبطالة قد استكشفوا إلى الغرب أرضاً جديدة مليئة بالفضي والحيرات ، يصفونها بأنها فارة كاملة ، وليست مجرد جزيرة كالجزائر الأخرى . وكتب البنا الدوق فيما كتب يقول إن قائدي السفينة أخبراه أن بدرو قد رقى إلى رتبة كابتن

وأنة متمتع بمحبة القائد العام ، وقد بعث معها برسالة لنا . . لكن هل تصديق أن رجال حاكم كوبا قد اعتقلوا السفينة القادمة بالكنز وأبقوا رجالها شبه أسرى ؟ . . وإذا لم تصلنا الرسالة قريباً فان زوجي يحتمل السفر إلى سانلوكار والنجدت في شأنها مع مونتيجو وبورتكاررو . . وقد أقسم أن يحصل على الرسالة حتى لو اضطر إلى انزعاجها نابزاعاً كل من تسول له نفسه حجزها . .

وكانت لويزا تنصت إلى هذا البيان لامعة العينين مبهورة . . أراض مليئة بالذهب والمجوهرات . . بدرو برتبة كابتن . . لقد تصورته بعين الخيال راكباً على رأس فرقة من الفرسان يشقون طريقهم في تلك الأراضي السحرية حيث ينبت الذهب كالنخاع على الأشجار . . أترأه يضع منديلها على خوذته ، أو معلقاً فوق رايته ؟ . . لم تتمالك لويزا أن تنهدت قائلة :

— يا لها من أبناء عجيبة رائعة ! . .

— إننا غفرون بولندا ... والله ندعوا أن يحميه وأن يردّه إلينا سالماً غانماً ...

— إني سوف أشاركك هذا الدعاء ياسيدي ...

وفي ختام الزيارة لم تتمالك دون ماريما من ضم لويزا إلى صدرها قائلة :

— دعيني أقبلك يا ابنتي .. إن هذه الزيارة مكرمة منك ... ولا بد أن

تكرريها . إنك تذكريني بابنتي ...

وما كادت لويزا تستقر في مركبتها الى جانب المربية حتى هنأتها هذه على اجادة دورها ، لكن الفتاة غمغمت ولم تفق بعد من تأثيرها :

— ان لها عيني بدرو ... أرايت ذلك ؟ . .

فلم تحب أنطونيا بأكثر من ابتسامة . . إن هذه ولاشك بواذر طيبة تستطيع إذا هي أبلغتها للمركز أن تستأثر برضائه وارتياحه . .

« تم الجزء الأول وبيته الجزء الثاني في العدد القادم »

mersalli